بهاء طاهر



خالتي صفية.. والدير

دار الهلال

خالتى صفية والدير

●

بقلم
بهاء طاهر

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان
محمد أبو طالب

الإهــــداء

إلى إبنتى دينــــا ويسر .

حبــــا لهما وللوطــــن

بهــــاء

ملحوظة

الأحداث والشخصيات والمواقع فى هذه القصة من نسج الخيال،وأى تشابه مع الواقع هو محض مصادفة ...

وســـا'نتظر !

حيّرتنى هذه الكلمة !

فقد طلب منى الصديق الأستاذ مصطفى نبيل باعتباره رئيسا للتحرير أن أكتب مقدمة للرواية عن حياة الكاتب وعمله . وبعد أن فرغت من كتابتها جال فى خاطرى أنه يحسن أن أترك القارىء ليلتقى مع العمل مباشرة وأن أجعل هذه الكلمة تذييلا للكتاب لا مقدمة له . ورغم أننى كتبت بكل وضوح فى بداية الحديث - كما سيلى - أن قراءة هذه الكلمة ليست إجبارية على أى نحو ، وأنه لا علاقة لها بالرواية فقد حاسبنى عليها كثير من القراء كما لو كانت جزءاً من الرواية !

ولمزيد من الإيضاح الآن فإنى أنقل مكانها من نهاية الرواية إلى أولها بناء على الاقتراح الأصلى . وللقارىء الذى تعنيه الرواية وحدها أن يترك هذه المقدمة الآن ليفرغ لها ، ولمن شاء أن يرجع إليها فى أى وقت آخر أن يفعل ، أما أنا فقد اخليت ضميرى أمام القراء والنقاد !

أعرف بحكم تجربتى فى الإذاعة ومحاوراتى مع الأدباء أن من أصعب الأمور أن يتكلم الكاتب عن نفسه : إما أن ينتابه الخجل فيسرف فى التواضع ويهوّن من شأن أعماله بحيث يظلم نفسه ، وإما على العكس أن ينتهز الفرصة ليسوى حساباته مع الحياة (وبالأخص مع النقاد !) فيسرف فى تمجيد ذاته . وأعرف أن قليلين قد وجدوا الوسط العادل للخروج من هذا المأزق . غير أن العلم بالمشكلة لا يعنى القدرة على حلها ! ..

ولهذا فسأطلب من القارىء الكريم أن يتحلى بالتسامح وسعة الصدر إن وجد أننى قد ملت إلى هذا الجانب أو ذاك . وعذرى الوحيد أن قراءة كل مايلى ليست إجبارية على أى نحو .

سأحاول إذن أن أركز على حكايتى مع كتابة القصة . ومرة أخرى سيغفر لى من يهمه الأمر إن تاه التركيز وإن كثرت الاستطرادات فهذا بالفعل حديث شخصى .

نشأت فى أسرة كانت كبيرة العدد وكانت رقيقة الحال . الأدق أنها كانت أسرة متوسطة الحال ثم انزلقت عدة درجات . كان أبى عليه رحمة الله مدرسا للغة العربية ، درس فى الأزهر وتخرج فى دار العلوم فى العشرينيات من هذا القرن ، أنجب تسعة من البنات ومن البنين كنت أصغرهم . وعندما بلغت الخامسة من العمر بلغ أبى سنّ المعاش ، وكان تجواله كمدرس فى أنحاء القطر قد انتهى به إلى الجيزة فظللنا نقيم بها . وتصادف أيضا أن جاءت تلك الأزمة الشخصية حين تقلّص المرتب إلى معاش صغير محدود ، فى وقت أزمة عامة هى الحرب العالمية الثانية التى أظهرت فى جانب قلة من أغنياء الحرب وفى جانب آخر غالبية من فقراء الحرب كان من جملتهم . وقد أتيح لى أن عيش لأرى صورة ذلك الانقلاب الاجتماعى تتكرر فى مصر بعد عشرات السنين مع تغير أفدح فى التفاصيل .

كان أبى وأمى من الصعيد ، ومن قرية الكرنك على وجه التحديد التى تقع فى حضن المعبد الشهير . وقد ظل أبى حتى نهاية عمره يحلم بأن يبنى بيتنا هناك ويعود ليقضى آخر أيامه فى مسقط رأسه . غير أن ذلك الحلم لم يتحقق إلى أن توفى وأنا فى السنة الأولى فى الجامعة . ولم أعش أنا فى القرية إلا فى إجازات قصيرة ، ومع ذلك فقد كنت أعرف عنها أدق التفاصيل والتطورات . فقد كانت قريتى هى « أمى » التى تركت القرية فى السادسة عشرة من عمرها بعد زواجها من أبى وتنقلت معه أثناء عمله فى عدة مدن حتى وصلنا إلى الجيزة ، ولكن القرية ظلت تعيش فى داخلها حتى نهاية عمرها ، عندما انتقلت إلى رحمة الله فى أوائل الثمانينيات . ولعل الأصح أن أقول إنها لم تغادر القرية ـ بوجدانها ـ قط فهى لم تغير طوال حياتها لهجتها ولا عاداتها الصعيدية . وكانت تفاصيل الحياة فى القرية وتاريخ أسرها والعلاقات بين هذه الأسر وما يحدث لأفرادها الموضوع المفضل عندها . وساعد ذلك انها كانت تملك موهبة غريزية فى حكاية القصص (هى التى لم تتعلم القراءة ولا الكتابة) . وكانت تمارس تلك الهواية باستمرار لا سيما عندما يزورنا أقاربنا من الصعيد ، فنتبادل معهم الأخبار والحكايات وتجدد معلوماتها عما يحدث هناك أولا بأول ، ومن حسن حظها أن مثل هذه الزيارات لم تكن تنقطع على مدار السنة . وكانت أحب

اللحظات إلىّ فى فترة الطفولة ـ وفيما بعد الطفولة أيضا ـ حين أستمع إليها تحكى هذه القصص باستغراق كامل وبتفاصيل دقيقة وبلغة البلدة وتعبيراتها كأنها مازالت تعيش فى النجع الذى ولدت فيه . لذلك فقد أهديت أول رواية لى ، وهى « شرق النخيل » ، إلى ذكرى أمى .. ليس فقط لأن هذه السيدة الأمية العظيمة استطاعت أن تقود سفينة حياتنا الصعبة وأن تضمنا بالحب أنا وأخوتى وتدبر معيشتنا بأقل القليل من المال حتى أنهينا تعليمنا ، ولكن لأننى منها أيضا تعلّمت حب الحكايات وحب الصعيد . ولا علاقة لهذا كله بعقدة أوديب كما ذكر أحد النقاد ذات مرة !

□□□

بعد أن تعلمت مبادىء القراءة والكتابة فيما كانت تسمى بالمدارس الإلزامية ، وبعد أن حفظت جزءا من القرآن الكريم فى أحد الكتاتيب بمدينة الجيزة دخلت مدرسة الجيزة الابتدائية . كنا أيامها نسكن بالقرب من ميدان الجيزة الرئيسى ، وكانت المدرسة تقع فى الحى الجنوبى المسمى « جوّة الجيزة » . اعتدت أن أمشى فى شارع سعد زغلول العريض نسبيا متجها إلى الجنوب وبعد فترة كان هذا الشارع يضيق ليصبح أقرب إلى حارة واسعة تنتصب على جانبيها بيوت متواضعة ، وبعد حوالى كيلو متر وأكثر قليلا تتفرع هذه الحارة إلى أزقة أكثر ضيقا وتواضعا . انعطف فى واحد من هذه الأزقة يمينا ، فإذا ساحة واسعة على جانبيها نفس البيوت الواطئة المبنية بالطوب اللبن ، ولكن ينتصب فى نهايتها سور عال يحجب ما وراءه. وكنت أعبر الباب الخشبى فأنتقل إلى عالم جديد لا علاقة له بما خلفته ورائى من حياة فقيرة جافة . كانت هناك بعد الباب مباشرة فسقية تسبح فى مياهها أسماك ملونة ، ويقوم من خلفها مبنى صغير أنيق تقود إليه سلالم رخامية . ذلك هو المبنى الذى توجد فيه غرفة حضرة الناظر وحضرات المدرسين وفصول السنتين الأولى والثانية . وإلى يمين هذا المبنى كانت الساحة الواسعة المفروشة بالرمل التى تصطف فيها كل فصول المدرسة فى الصباح ، وإلى يساره « فصول الكبار » أى السنتان الثالثة والرابعة وكان هذا المبنى *أقل* أناقة تقود إليه سلالم خشبية ، ولكنه يطل من ناحية أخرى على حديقة المدرسة

الرائعة ، العبقة دائما بأحواض الورود والنرجس وبزهر شجرات الليمون والنارنج .

كانت المدرسة بالنسبة لى شيئا جميلا ومخيفا فى الوقت نفسه ، كانت عالما مختلفا له نظامه الصارم وله مباهجه الصغيرة . وأذكر أن كلا منا كان يحمل فى حقيبة المدرسة قطعة صغيرة من القماش لكى يمسح عن حذائه التراب ويلمعه جيدا قبل أن نعبر من الباب الخشبى إلى فناء المدرسة .

ذلك أنه كان هناك شخص رهيب يمر فى الصباح على صفوفنا المتراصة لكى يتأكد أن كل شىء على مايرام . وفى أول التحاقى بالجيزة الابتدائية كنت أعتقد أن هذا الشخص هو أهم إنسان فى المدرسة ، وكانت هيبته تزداد بسبب اسمه ، إذ كان يدعى (الضابط) . وكانت كلمة العسكرى ، ناهيك بالضابط، تدخل الرعب فى قلوبنا أيام الطفولة (الطفولة فقط ؟) . وكان هذا الضابط فارع الطول ، يلبس بنطلونا رماديا وجاكتة كحلية وفى يده خيرزانة رفيعة لا تفارقه ، ولكننى أخطىء ، فهو لم يكن واحدا ، بل كان عندنا ضابطان ، يمر أحدهما كما قلت فى الصباح يتفقد أحوالنا : من كان شعره أو أظافره أطول من اللازم أو من كان حذاؤه متسخا أو جوربه متهدلا يخرج من الصف ويفتح يده ليتلقى لسعات الخيرزانة الرفيعة على يده لا يجدى فى ذلك توسل أو بكاء . وكان الضابط الآخر يقف إلى جوار الناظر الذى يشرف على صفوفنا جميعا ونحن نغنى النشيد الملكى : « بالمليك يا بلادى اسعدى ، للمليك يا بلادى اهتفى ! » وربما يشارك الناظر بنفسه أيضا فى توقيع العقاب فى الحالات الخطيرة حين ينادى الضابط الواقف إلى جواره بصوت جهورى على اسم طالب ارتكب ذنبا خاصا أو أهمل إهمالا جسيما . وكان العقاب فى هذه الحالة رادعا وربما شمل العبط أى ان يحتضن أحد الضابطين . وكان أحد الضابطين التلميذ ممسكا بذراعيه بإحكام بينما ينهال الضابط الآخر بالخيرزانه على مقعدته وساقيه .

كانت تلك اللحظات من الصباح أوقات رعب ، لاتنتهى إلا حين نصعد إلى فصولنا لكى نتلقى رعبا آخر من المدرسين الذين كانت مع كل منهم خيرزانته الخاصة: الأستاذ موسى مدرس اللغة الإنجليزية الذى كان يصر على أن يمتحننا

كل صباح فى هجاء ماتعلمناه من الكلمات وعلى أن نستخـدم كل كلمة فى جمـلة من تأليفنا لا من الكتاب المقرر ... والأسـتاذ عبد الفتاح مدرس اللغة العربية الذى كان العرق يتفصد من وجـهه الأحمر صيفا وشتاء وهـو يشرح لنا القواعد والإعراب .. والأستاذ الزمرانى مدرس الحساب القصير القامة والذى كان يملك مع ذلك أطول خيزارنة فى المدرسة وينهال بها على من يتلجلج ولو لثانية واحدة فى جدول الضرب . لكم أدعو الله لهم جميعا الآن بقدر ما بذلو من جهد لتعليمنا !.

لم تكن هناك أيامـها دروس خصوصـية ولا غش فى الامتحـانات كظاهرة عامة ولا مدرسة المشاغبين ولا هزل فى التـعليم من أى نوع . كانت المسألة فى منتهى البساطة : نحن فى المدرسة لكى نتربى ونتعلم ، هم يبذلون جهدهم لذلك ، ونحن فى الغالب نستجيب .

غير أن المدرسـة لم تكن هى هذا وحده . فـقد كانت هناك أيضا حصص الأشغال والفلاحة والرسم والهدايات ، وكان مدرسوها أكثر ؟ وقربا إلينا ، وكانت هناك أيضـا صداقات الطفولة الجـميلة والألعـاب الكثيـرة التى كنا نختـرعـها فى فسحة الغداء الطويلة .

ومن ذلك مثلا أنى مازلت أذكر حتى الآن الاكتشاف الذى توصل إليه زميلنا أحمد الجبالى ونحن فى السنة الثانية الابتدائية أقنعنا أيامها إقناعا تاما بأن من يقتل نملة فارسية بضربة كف واحدة فمن المؤكد أن يعثر على خاتم سليمان وان ينفتح له فى تلك الليلة ذاتها كنز . وكان الشرط الوحيد للوصول إلى هذا الحظ السـعيد هو ألا تتحرك النملة حركة واحـدة بعـد ضربة الـكف . ولـكنى لا أذكر أن كان ذلك سابقا على اكتشافنا لعش النمل الفارسى فى فناء المدرسة أو تاليا له .. ما أذكره على وجه اليقين أننا قضينا أياما متعاقبة نطارد هذا النمل البائس بكفوفنا حتى كدنا نقضى عليه ، وأننى كنت فى مشوار المدرسة الطويل ذهابا وإيابا أتطلع على الرصيف متنمرا ذات اليمين وذات الشمال بحثا عن الخاتم السحرى على أمل أن أكون قد قتلت نملة دون أن أرى . ولكن ماحيّر عقولنا الصغيرة أننا مهما بلغت قـوة ضرباتنا وإحكامها فقـد كانت النملة اللئيمة تتحرك بأن تقوس ظهرهـا لثوان قبل أن تموت . لحظتها يقـول أحمد الجبالى بصوت مرتفع ظافر « ما ينفعش ! » فتتضاءل آمالنا ولكننا نكرر المحاولة . أما الشىء

الوحيد المؤكد الذى انشقت عنه الأرض أيامها ونحن نقتل النمل فلم يكن هو الكنز ، وإنما كان حضرة الضابط الذى وجدناه يطل علينا ونحن مقرفصين فى الأرض وقد اتسخت أيدينا وأرجلنا من تراب الفناء . فاستحق كل منا بضع خيرزانات على أكفنا الملتهبة والدامية من الأصل نتيجة الكد والكدح ونحن نطرق أبواب الكنز، وذلك قبل أن يسوقنا ضربا بالعصا لكى نغسل أيدينا ونشطف أرجلنا

وبهذه العلقة الساخنة انتهت أحلام الثراء المبكر . ومع ذلك فقد انفتح لنا كنز آخر حين اكتشف أحمد الجبالى نفسه ـ ترى ما الذى فعلته الأيام بهذا القائد الموهوب ؟ ـ اكتشف عالما مسحورا لم يكن واحد من مجموعتنا يعرف سره (*) .

(*) قد يهم بعض الباحثين فى الموروث الشعبى معرفة العقائد التى كانت منتشرة فى مدرسة الجيزة الابتدائية على أيامى حول الحشرات غير حكاية النمل الفارس : فمن ذلك مثلا أن يمسك التلميذ بحشرة « فرقع لوز » من نصفها الأسفل الأملس ويوجه لها سؤال « أنا حا انجح السنة دى ؟ » فإذا طقطقت بنصفها العلوى ثلاث مرات لم يعد النجاح موضع شك . وإذا وقف « فرس النبى » الأخضر الهش على الكتف الأيمن للتلميذ فتلك بشرى بأنه سيحج إلى بيت الله الحرام فى تلك السنة نفسها . وكنا نتسابق ركضا إذا ما ظهر فرس النبى إلى جوار الحديقة معرضين أكتافنا اليمنى بكل وضوح للحشرة المباركة . غير أنها فى الغالب كانت تفزع من ضجتنا فتعود مرفرفة بأجنحتها الشفافة من حيث أتت .

وأظن أننا كنا فى بداية السنة الثالثة الابتدائية عندما دلنا على اكتشافه الجديد الرائع : روايات الجيب !.. ومن وقتها بدأنا نتبادل فى حرص وخفية أرسين لوبين وشرلوك هولمز ورو كامبول ، وأى شىء يمكن أن تقع عليه أيدينا من تلك الروايات البريئة التى كان تبادلها محّرما فى الجيزة الابتدائية على أساس أنها تصرفنا عن الدرس والاجتهاد . ومع ذلك فإن تهريبها لم يتوقف فى أى وقت . لم يكن لدى أى منا من النقود ما يكفى لشراء كل هذه الأعمال وكان تبادل المتاح منها يحل المشكلة . ثم إننا كنا نجلس فى حلقة الظهيرة فى فناء المدرسة ليقص كل منا فى حماس على بقية المجموعة ما تيسر له من القراءة : نقارن بين غباوة واطسن وذكاء هولمز وننفعل ونحن نقارن بين هذه المغامرة لأرسين لوبين وتلك . وقد يصل الاختلاف فى التقييم النقدى بيننا إلى حد الشجار والخصام بينما بقية الزملاء يلعبون حولنا فى أمان الله . وهكذا ركبنا من سن مبكرة ذلك الداء . كانت قراءاتى فى القصة قبل ذلك تقتصر على كليلة ودمنة والكتب التى تحكى ألف ليلة وليلة بلغة مبسطة للصغار، وبعض قصص للمنفلوطى كانت تضمها مكتبة أبى . كانت مكتبة عامرة بالكتب الدينية والأدبية الرفيعة التى أنفق عليها كل مدخراته ولكنها لاتضم إلا القليل النادر من القصص فتحتّم علىّ أن أدبر نفسى بنفسى. وكانت روايات الجيب تدهشنى أحيانا إلى جانب لوبين وهولمز بأشياء تحيّرنى لم اسمع بها من قبل إسمها أنا كارنينا أو الجريمة والعقاب أو مدام بوفارى . لم أكن أفهم هذه الروايات جيدا ولكنها كانت تحفر شيئا فى نفسى .

ثم وصلنا إلى السنة الرابعة الابتدائية وكانت شهادة مهمة جدا فى تلك الأيام . كان اهتمام المدرسين بنا يتضاعف فى تلك السنة كما يتضاعف العقاب على التقصير والإهمال . وذات يوم بعد امتحان نصف السنة المرهق الذى كانت تحتشد له المدرسة لاختبار ماسنحققه من نتائج فى الامتحان الكبير فى آخر السنة ، ذات صباح ربيعى جميل ، بعد أن غنينا سعادتنا بالمليك وهتافنا للمليك ، وقبل أن نصعد إلى فصولنا بالسلامة ، إذا بشىء يحدث على غير توقع يسقط له قلبى . فقد نادى الضابط الذى يقف إلى فقد كرر النداء فى عصبية مردفا ، التلميذ فى سنة رابعة أول . وهكذا خرجت من الصف وسرت مرتعش الساقين

وسط صمت ثقيل حلّ على الصفوف المتراصة فى المدرسة . كنت أحاول أن أحصر فى ذهنى الذنب الذى استحققت من أجله هذا العقاب الصباحى الداهم وأنا أتجهْ إلى جوار حضرة الناظر بصوت جهورى مناديا اسمى . بدأ صفير حاد فى أذنى وبلعت ريقى غير أنى لم أتحرك من مكانى على أمل أن يكون هناك تلميذ آخر له نفس الاسم . غير أن الضابط لم يترك مجالا لأى شك أو أمل

إلى الضابط والناظر . ولكن حين وصلت أدهشنى أن تلقانى الناظر بابتسامة عريضة ، ثم وضع يده على كتفى وهو يقول مخاطبا الصفوف بصوت مجلجل « زميلكم التلميذ ... » ثم راح الكلام يأتينى من بعيد وكأننى فى حلم .

قال الناظر إن امتحان نصف السنة فى فصلنا كان يطلب إلى التلاميذ كتابة قصة عن موضوع معين . قال إن مدرس اللغة العربية فعل شيئا لم يحدث فى تاريخ الدرس من قبل إذ أعطانى فى هذه القصة الدرجة النهائية . وقال إن المدرس أعطاه القصة ليقرأها فبكى تأثرا (كان الموضوع فى الغالب منفلوطيا حزينا غير أنى الآن لا أذكره) . وقال إن القصة أدهشته واللغة أدهشته ولولا أن المدرس هو الذى حدّد لنا الموضوع فى يوم الامتحان لما صدق أننى أنا الذى كتبتها . وفى النهاية قال إنه ؟ لهذا وذاك فقد أمر بأن تكون القصة موضوع درس إملاء على جميع فصول المدرسة لكى يفيد منها كل التلاميذ .

وكان ذلك هو أول مجد حصلت عليه من كتابة القصة .

وهو أيضا - مع الأسف - آخر مجد .. فأما المتاعب والمشاكل فلا حصر لها .

غير أنى أبادر فأطمئن القارىء العزيز إلى أننى لن أحكى له قصة حياتى .

سأقتصر فقط على ما يخص الكتابة . لن أتوقف عند قراءاتى بعد أن دخلت مدرسة السعيدية الثانوية ، ولن أتحدث عن اكتشافى لطه حسين ولشعر

المتنبى اللذين أضيفا إلى ذخيرتى من القراءة المستمرة : ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ، ولا عند « جماعة الجراموفون » فى المدرسة التى اكتشفت عن طريقها الموسيقى الكلاسيكية لأول مرة وأحببتها . ولكن لابد أن أشير ولو مجرد إشارة إلى مظاهراتنا كطلبة ضد الإنجليز وضد الملك فاروق ، الذى أزعم أن أول مظاهرة حاشدة خرجت تهتف بسقوطه وبعودته مع أسرته إلى أنقرة كانت هى إحدى مظاهرات السعيدية الثانوية . وفى تلك الأيام كانت اهتماماتنا تشمل الوطن العربى إن لم يكن العالم كله . فقد خرجنا فى مظاهرات ضد فرنسا بسبب جرائمها فى تونس والجزائر ، وضد انجلترامن أجل العراق ، وضد الصهيونية من أجل فلسطين . وكان من أساتذتنا من يعلمنا الوطنية كجزء من المقرر ، وأذكر مثلا الأستاذ السعدنى مدرس التاريخ الذى كان يؤنب التلاميذ حين يتخلفون عن مظاهرة وطنية ، وكان الأستاذ السعدنى يعلم أنه يغامر بوظيفته حين يحثنا على التظاهر ضد الملك ، ولكنه كان يعلمنا أيضا أن نغامر حباً للوطن . وكم مرة ضربنا الجنود بالهراوات فى تلك المظاهرات ، وكم من مرة سمعنا لعلعة الرصاص !

كان ذلك فى السنوات القليلة التى سبقت الثورة ، أيام حكومات النقراشى وإبراهيم عبدالهادى ولكن جاءت حكومة النحاس باشا ، اختفى حصار الشرطة الدائم الذى كان مضروبا حول مدرسة السعيدية وحول الجامعة وكات مظاهراتنا تخرج فى أمان نسبى وهى تطالب النحاس بإلغاء معاهدة ٣٦ وبالكفاح المسلح فى القناة ضد الانجليز ، ولم تكن الأخطار تبدأ إلا حين تتعرض الهتافات للملك . كان من بيننا فى السعيدية الثانوية وفديون وإخوان مسلمون وشيوعيون وكل ألوان الطيف ، ولكن الغالبية العظمى من الطلاب ـ الجسد الحقيقى للمظاهرت ـ كانت مثلى : كنا نحب النحاس باشا وصلاح الدين باشا وتستهوينا شعارات الاشتراكية حين نقرأ لأحمد حسين فى صحيفة الاشتراكية ولفتحى رضوان فى اللواء الجديد دون أن نهتم بالانضمام إلىٰ حزب أو تيار معين . وكان أساتذتنا يعلموننا أن يكون هوانا الأول هو الوطن ، سواء كنا حزبيين أو غير حزبيين .

وأذكر ذات مرة أن الخلاف احتدم بين قادة الأحزاب والتيارات فى

السعيدية ونحن نقف فى فناء المدرسة قبل أن تخرج إحدى المظاهرات ، وكاد الأمر يصل إلى حد الاشتباك ، فوقف واحد من الطلاب فوق أعلى درجات سلم وبدأ يهتف بسقوط رؤساء الأحزاب مسميا إياهم واحدا واحدا . بدأ بأسماء زعماء أحزاب الأقلية ، فلم تكن هناك مشكلة فى أن تردد المدرسة كلها وراءه الهتاف ضد عبدالهادى وحافظ رمضان ، الخ . ولكن حين وصل هتافه إلى النحاس أصابت رئيس اللجنة الوفدية للطلاب نوبة تشنج وراح يكرر بمفرده الهتاف لزعيم الوفد النحاس » !.. النحاس » فانفجر الطلاب بالضحك ، ولما انتبه زميلنا الوفدى إلى أنه يهتف وحده بدأ يضحك هو أيضا . وكنا قد فهمنا جميعا من أول لحظة ما يريده ذلك الزميل الذى يهتف بسقوط زعماء الأحزاب ، فقد انتهى بالطبع إلى هتاف .. « وتحيا مصر » ، وهكذا فقد خرجت المدرسة كلها فى ظل هذا الشعار الموحد لتطالب النحاس بأن ينجز وعده بإلغاء المعاهدة .

دخلت الجامعة فى السنة التى قامت فيها الثورة . وكم كانت فرحتنا بها ! .. ألم نشارك فى صنعها بمظاهراتنا وهتافاتنا ضد الملك الفاسد ؟.. ألم ننزل إلى الشارع من أول دقيقة لكى نحمى بأجسادنا تلك الدبابات القليلة العتيقة التى حاصرت قصر عابدين ، نحميها من غدر الملك ومن غدر الانجليز ؟..

أو لم يكن هؤلاء الضباط شبانا مثلنا، لا يكبروننا سوى بسنوات قليلة ، وقد خرجوا يضحون بحياتهم لكى تتحقق أحلامنا ؟..

كل ذلك حق . ولكن ما كان أقصر عمر هذه الفرحة !.. ما أسرع ما انتهى شهر العسل بين الثورة والطلبة !.. تحققت أحلامنا الكبيرة : خرج الملك ، وصدر قانون الإصلاح الزراعى لإنهاء الاقطاع ، وتم تطهير جهاز الحكم من الفاسدين والمرتشين . ولكن بدا من أول لحظة أن الضباط لا يريدون أن يشاركهم فى الحكم - بل ولا فى الرأى - أحد. وعندما خرجت أول مظاهرة من جامعة القاهرة تهتف « يسقط حكم البكباشية » ! تلقفنا الجنود بالعصى والهراوات مثلما كانوا يفعلون أيام حكومة النقراشى .

ثم حدث ما هو أسوأ من ذلك بكثير .

وما أكتبه الآن هو نوع من التبسيط المسرف للأمور وإن لم تكن بمثل هذه البساطة . فأنا لا أريد أن أقول إننا (مجموع الطلاب) قد عادينا الثورة كما كنا نعادى حكومة الملك . ولكنى أريد أن أقول إن صراعا قد نشأ - لا بيننا وبين الحكم فحسب - بل إن الصراع نشب فى وجداننا أيضا بين تأييدنا لما تفعله الثورة فى حربها ضد الانجليز ومن أجل استقلال الوطن والنهوض به وبين كراهيتنا لحكمها الباطش وقبضتها الخانقة فى لحظات معينة مثل تأميم القناة أو حرب بور سعيد ، كان الجانب الأول يطغى فنؤيد الثورة تأييدا جارفا ونعرض حياتنا دفاعا عنها . وفى أوقات أخرى - مثل أيام حملات الاعتقالات أو جلسات محاكم الثورة الكابوسية التى كات تذاع فى الراديو لم يكن الرعب والغضب يتركان مكانا لأى حب أو تأييد. وما أريد أن أصل إليه هو أن هذا المناخ من المشاعر المزدوجة والمتضاربة هو الذى بدأنا - جيلى وأنا - نكتب فى ظله . ثم إننا حين تقدمنا فى العمر واكتسبنا شيئا من النضج ، كان الوعى بهذه الازدواجية ومحاولة الخروج منها مؤثرا رئيسيا فى كتاباتنا .

ولكن ذلك كله فيما بعد .

فى كلية الآداب بجامعة القاهرة تعرفت على مجموعة من الطلبة يكتبون القصة والشعر والنقد . كان هناك رجاء النقاش وشقيقه القاص المبدع وحيد النقاش الذى رحل عن الحياة فى شرخ الشباب وترك فى نفسى جرحا لا يشفى ، وكان هناك القاص مصطفى أبوالنصر والكاتب صبحى شفيق الذى عرف بعد ذلك باهتماماته السينمائية ، والشاعر محمد سليمان وعن طريقه تعرفنا على شقيقه الفنان التشكيلى الموهوب حسن سليمان وعلى مجموعة من النحاتين والرسامين ، وكان هناك أيضا معوض بولس ويوسف السيسى اللذان أضافا إلى مجموعتنا بعدا موسيقيا. وفى نهاية المرحلة الجامعية ، أو ربما بعدها مباشرة ، انضم إلينا سليمان فياض والقاص الأردنى غالب هلسا صديق أجمل سنوات العمر ، والذى رحل كذلك عن دنيانا فجأة بعد عمر معذب تشرد خلاله فى أكثر من عاصمة عربية ولعل أكثر ما أوجعه فيه هو إبعاده عن القاهرة التى قضى فيها ربع قرن من عمره القصير وأحبها الحب كله .

وفى سنوات التكوين تلك كان كل واحد من المجموعة الصغيرة يقدم للآخرين شيئا : عرّفنا رجاء النقاش على مجلة الآداب البيروتية ، وكان من كتابها وهو بعد فى السنة الأولى بالكلية ، فاكتشفنا الشعر الجديد للسياب وصلاح عبدالصبور وحجازى والبياتى وقصص جبرا ابراهيم جبرا وفؤاد التكرلى وشوقى بغدادى وكل تلك المدرسة الرائعة التى احتضنتها « آداب » سهيل ادريس . وقدم لنا مصطفى أبو النصر اكتشافه الخاص : نجيب محفوظ الذى كان يطبع طبعات محدودة من أعماله المبكرة ، وأهدى لنا صبحى شفيق ووحيد النقاش الأدب الفرنسى : مالرو وسارتر وسيمون دى بوفوار ، وكنت أقدم لهم دراسات وترجمات فى موضوع بدا غريبا (وهو بالفعل غريب !) : الأدب اليونانى القديم. وربما كان ذلك بسبب عشقى المبكر والدائم لأمرين : المسرح وأدب طه حسين .

وقد قرأنا فى تلك السنوات الأولى الشعر العربى على طه حسين الذى استمعت إلى بعض محاضراته فى قسم اللغة العربية مع مصطفى أبو النصر وكنت ضيفا عليه من قسم التاريخ وعشقت ثلاثة من الشعراء أضيفوا إلى ذخيرتى الدائمة التى أرجع إليها فى كل حين: طرفة بن العبد وأمرؤ القيس وأبو العلاء المعرى ، وكنا أيضا نقرأ فى نهم مجنون مايكتشفه كل منا ، وهكذا فقد قرأنا همنجواى وفوكنر وشتاينبك والجاحظ ومختارات من الأغانى للأصفهانى وتاريخ الجبرتى ودستويفسكى وتشيخوف وتولستوى ويحيى حقى والمازنى وشيكسبير وت .س . إليوت وأنا لا أرص هذه الأسماء ولكنى أختار بعناية أهم القراءات التى انشغل بها جيلى فى ذلك الوقت. أما مسألة التأثر بهذا الكاتب أو ذاك فمتروكة للنقاد !

على أننا كنا قبل ذلك كله وبعده نتبادل كتاباتنا : قصصنا وأشعارنا التى كنا نحن مبدعيها وقراءها الوحيدين (إنفرد بيننا مصطفى أبو النصر بمجد حسدناه عليه ، إذ نشر بالفعل قصتين قصيرتين ونحن طلبة فى مجلة الآداب. ولكن بالرغم من تواضع بداياتنا فإن طموحنا لم يكن متواضعا على الإطلاق . كنا نريد أن نبدع أدبا جديدا خالصا . ربما لم نتحدث فى ذلك عن عمد، ولكن عبارة «تجربة جديدة » كانت تتكرر عند تقديم كل قصة يكتبها أحدنا . كنا نحاول أن

نتجاوز نجيب محفوظ ويوسف إدريس وكانا جديدين كل الجدة فى وقتها ورائعين فى كل وقت . ولكننا لم نكن نقنع بشىء . كنا نهمل عنصر « الحدوته » فى القصة ونسخر منه ، وكنا نعتبر أى تركيبات بلاغية أو تأنقا فى الأسلوب عارا ينبغى تجنّبه واستئصاله من القصة على الفور، ولم نكن نقبل أى مساومة فى الأمور التى تحرم الرقابة الخوض فيها،ومع ذلك فقد كنا نرفض أى تعبير مباشر أو نبرة زاعقة تجعل القصص تعليمية أو دعائية . كنا نريد أدبا يغير فكر المجتمع ولا أقل من ذلك . ولا أعرف بعد ذلك كله ماهى القيمة الأدبية الحقيقية لهذه الأعمال التى كنا نكتبها ونحن فى الجامعة ، وقد ضاع معظمها الآن أو اندثر، ولكنى أقول بكل تواضع إن جيلنا كله ، وأنا منه، قد ظللنا أوفياء لحلمنا فى أن نقدم أدبا جديدا، وفى أن يكون هذا الأدب فى اتجاه التغيير نحو الأفضل ، على أن يظل أدبا خالصا لا خطابة فيه ولا عاطفية مبتذلة .

ومن علائم الوفاء لهذا الحلم أننى حين اشتغلت وأنا طالب فى السنة الأخيرة بالجامعة مترجما فى مصلحة الاستعلامات ، حرصت الحرص كله على إخفاء اهتمامى بالكتابة عن زملائى فى العمل. كانت تلك المصلحة متخصصة فى الدعاية للثورة ، وكنت أكتب أدبا معاديا للكثير من توجهات تلك الثورة فى حينها ، وأتبادله خفية مع أصدقاء يشاركوننى ميولى وآرائى . أصررت على ألا يتجاوز طموحى فى تلك المصلحة نطاق الترجمة الضيق رافضا كل فرص الترقى إلى وظائف الدعاية الفنية . ولكن هذا الإحجام لم يغب قط عن عين مدير المصلحة اليقظة ، وكان من حسن حظى أنه اقتصر على التهكم على سلبيتى الواضحة تجاه الثورة ولم يفعل ماهو أكثر من ذلك . وقد كان بوسعه أن يفعل . ثم إنى تنفست الصعداء بعد ذلك حين تخرجت فى الجامعة ونجحت فى اختبار للعمل فى الإذاعة (عام ١٩٥٧) . اخترت أيضا أن أعمل فى البرامج الثقافية البعيدة – فيما بدا لى عن مجال الدعاية لبعدها عن الأضواء وعن المهرجانات السياسية . كان الإذاعى الرائد سعد لبيب ينشىء أيامها البرنامج الثانى (الثقافى) فانضممت إلى مجموعة الإذاعيين المثقفين الذين شاركوا فى صنع هذه التجربة الرائعة . وقد نشرت فى غير هذا المكان حكايتى مع الإذاعة ، حكاية تلك الفترة الخصبة التى

نشأ فيها البرنامج الثانى ، وكيف أسهم هذا البرنامج فى تطوير الإبداع ، والنقد الأدبى والمسرح بالذات ، ولكنى أود أن أضيف هنا أنه لعب دورا مهما جدا فى تكوينى الثقافى والشخصى. ليس فقط من خلال ما أتاحه لى من انفتاح على ثقافات متنوعة من الشرق والغرب ، وإنما أيضا بفضل صداقات ثرية ورائعة مع العاملين فيه والمتعاملين معه ، وهم صفوة المثقفين . والبعض من هذه الصداقات هى التى استمرت العمر كله وعمدّتها المحن . وأخص هنا بالذكر فاروق خورشيد وفاروق شوشة وإدوارد الخراط وصبرى حافظ .

غير أننى قد ظللت لسنوات طويلة بعد التخرج أكتب القصص على طريقة الجامعة : بمعنى أننى كنت أكتب وأقرأ لأصدقائى وقد زاد (جمهورى) عددا بمن كسبت من أصدقاء جدد. ولم يكن النشر أيامها سهلا ولا ميسورا ، بالنسبة لمن يكتب قصصا كالتى أكتبها . كانت الثورة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات قد أصبحت نظاما من مؤسسات متكاملة. كانت هناك وزارة الثقافة يتجاذبها الدكتور عكاشة رافعا شعار « الكيف » والدكتور حاتم رافعا شعار « الكم » ، ولم يكن للأدب القصصى أى مكان فى هذه المباراة ، وكان هناك مجلس أعلى للآداب والفنون يكرس « الاستقرار » ، ومن ذلك أنه حين تقدم إليه صلاح عبدالصبور بديوانه الأول الرائع من الشعر الجديد « الناس فى بلادى » للحصول على إحدى الجوائز ، أحال العقاد الديوان إلى لجنة النثر !.. وكان هناك أيضا الملحق الأدبى للأهرام غير القابل للنفاذ . فالإبداع يعنى فقط توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ثم من بعدهما يوسف إدريس وعلى سبيل الاستثناء والدعابة الثقيلة نشر ذلك الملحق مرة يتيمة قصة لواحد من جيلنا ولكنه لم ينشر اسم المؤلف !... وكانت هناك فى الملحق الأدبى أيضا أركان للنقد والمذكرات والخواطر تكتبها أسماء لا تتغير من اسبوع لأسبوع . ولم يكن فى هذا كله من بأس ، فقد كانت كلها ـ أو معظمها ـ أسماء تمثل ـ كما كان القصد ـ قمة الإبداع الأدبى فى تلك المرحلة . وإنما كان هناك أمران أفسدا تلك المؤسسة كما أفسدا المؤسسات الأخرى التى صنعتها الثورة . أولهما أن ذلك الانفراد أو التفرد فى القمة قد منع أى نوع من الالتقاء والحوار مع الأصوات الجديدة التى كانت تقدم

شيئا مختلفا يعبر عن نبض جديد ينبغى الإصغاء إليه لمعرفة المسار الحقيقى للتطور فى المجتمع . وثانيهما أنه فرض أن تتم عملية التغيير الحقيقى خارج المؤسسات المعتمدة وبعيدا عن علمها .

وربما كان الأخطر من ذلك - لأنه ظل ظاهرة مستمرة - هو غياب أو انزواء عنصر الالتزام الفكرى فى تلك المؤسسات . واعتبار الانتساب إليها ميزة تحقق غايتها فى ذاتها . فهل كان هناك خلاف مثلا بين أن ينتقض البرلمان الذى انتخبه الناس أيام عبدالناصر وعلى مبادئه الثورية على كل تلك المبادىء بمجرد وفاة عبدالناصر وطرد رئيس المجلس وحفنة من الأعضاء وبين أن يتكرر الأمر نفسه بعد سنوات قليلة فى كل المؤسسات الثقافية وغير الثقافية التى ظلت تعمل بنفس الوجوه والأسماء لتنفيذ سياسة مغايرة تماما لما طرحت نفسها لتنفيذه فى الأصل ؟ هذا سؤال .

أما المهم فى هذا كله هنا فهو أننا ظللنا - جيلى وأنا - خارج المؤسسة الثقافية وأحيانا على هامشها . وكان الهامش يتألف بالذات من الملحق الأدبى لصحيفة المساء المحدودة الانتشار ، والذى كان يشرف عليه الأديب الرائع عبدالفتاح الجمل ، ومجلة المجلة فى فترة رئاسة الكاتب الكبير يحيى حقى لتحريرها ، ثم قلة الصفحات الأدبية فى بعض المجلات الأخرى إلى جانب البرنامج الثانى فى الإذاعة . تلك هى المنابر التى كانت متاحة فى مطلع الستينيات للابداع الجديد ، وقد كانت عظيمة القدر فى ذاتها ولكنها محدودة التأثير لأنها بعيدة أو مبعدة عن الجمهور الواسع .

وفى تلك الظروف نشرت أول قصة قصيرة لى فى سنة ١٩٦٤ فى مجلة الكاتب حين كان يرأس تحريرها أحمد عباس صالح (وعملت فى نفس المجلة فيما بعد محررا لباب المسرح ولكن تلك قصة أخرى) ثم نشرت بعد ذلك قصصا فى المساء وفى مجلة المجلة وفى صباح الخير عندما كان المسئول عن الجانب الثقافى فيها لويس جريس . ولكننى لم أذع أيا من قصصى فى البرنامج الثانى الذى كنت أعمل فيه ، إذ جال فى خاطرى أن ذلك يعتبر نوعا من

استغلال النفوذ !.. وهذه القصص التى نشرتها هى التى ضمت بعضها فيما بعد مجموعة « الخطوبة » والتى صدرت طبعتها الأولى فى عام ١٩٧٢ .

فى ذلك الوقت ، فى مطلع الستينيات كانت تتشكل فى تلك المنابر ملامح الأدب الجديد . سبقنا بقليل سليمان فياض وأبو المعاطى أبو النجا وغالب هلسا إذا نشروا معظم أعمالهم المبكرة فى بيروت ، ثم جاء صنع الله إبراهيم ومحمد البساطى ويحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم أصلان وعبدالحكيم قاسم وجميل عطية ، ضمن أسماء كثيرة أخرى . لم تكن تضمنا جمعية أدبية ، ولا كنا نملك تكاليف إنشاء جمعية . كنا نلتقى أحيانا بالصدفة فى بيت غالب هلسا ونلتقى فى أحيان أخرى فى مقهى ريش . وكانت صداقة قوية تجمع بين البعض منّا منذ سنوات كما ذكرت ولكن آخرين لم يتعارفوا إلا بعد نشر أعمالهم . وما أريد أن أقوله من ذلك هو أنه إذا كان هناك شىء يجمع بين هؤلاء الكتاب فلم يكن ذلك نتيجة لتجمع فكرى أو « بيان » أدبى ، ولكن لأنه كانت هناك ظروف جديدة اقتضت تعبيرا جديدا .

كان التيار الأدبى الذى يملأ الساحة فى مصر فى فترة الخمسينيات هو الواقعية الاشتراكية بتطبيقها المصرى الخاص . وأبرز النماذج المعبرة عنه بطبيعة الحال روايتا « الأرض » للشرقاوى ، و« قصة حب » ليوسف إدريس ، وبعض أعمال نجيب محفوظ فى مرحلته الواقعية ، مثل «بداية ونهاية» . وفى تلك الأعمال كانت تتضح بدرجات متفاوتة السمات الجوهرية للمنهج : الاهتمام بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية فى تكوين الشخصيات . وفى سلوكها ، ووصف البيئة المتماسكة والمحددة التى يتحرك الأشخاص فى نطاقها والتى تساهم فى صنعهم بقدر مايساهم الأبطال الإيجابيون فى صنعها وفى إعادة تكوينها واللغة الوصفية المحددة والواضحة الدلالة ، والرسالة التبشيرية التى لا تخفى على القارىء : لابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر !...

وكان هذا الأدب الواقعى كما قلت من قبل نقلة جديدة فى مسار الأدب المصرى واستجابة صادقة للمرحلة التى ظهر فيها . فقد كانت تلك هى فترة

التحولات الثورية الكبيرة فى تاريخ الوطن : المعركة ضد النظام القديم وضد الاحتلال والاستعمار والإقطاع والاستغلال ، وقد ساهم الأدب الواقعى فى تمهيد الأرض الفكرية لهذه التحولات الثورية وفى التعبير عنها . وكانت هناك انتصارات كبيرة تبرر التفاؤل الواقعى فقد تحررت مصر من الاستعمار ، وتحققت درجات مختلفة من العدالة الاجتماعية فى الريف وفى المدينة على السواء ، وأصبح التعليم لأول مرة متاحا للجميع ولم يعد مقصورا على القادرين .

غير أن فترة التغيرات الثورية الكبيرة انتهت وتحولت الثورة إلى نظام ، ونظام شديد الوطأة عند ذلك . إذ بينما كانت الانتصارات الوطنية تتوالى كانت الهزائم تتراكم على جبهة الحريات الفردية وحقوق الإنسان . وتعرّض الكتاب والمواطنون فى جملتهم كما قلت لأنواع من الحيرة والتمزق كانوا يؤيدون السياسة الوطنية العامه لنظام عبد الناصر ولكنهم يعترضون تماما على الطابع الشمولى لهذا النظام ويقاسون منه .

وفى ظل هذه الحيرة فإن الأدب الواقعى المتفائل الذى يبشر بالنصر وبالإنسان الفاعل المؤثر لم يعد له مكان ، وواقع الحال أن كثيرا من أبرز كتاب الواقعية وأهم نقادها ومنظريها قد دخلوا السجن وظلوا فيه لسنوات طويلة حتى منتصف الستينات !

وكان الأدب الجديد الذى يتشكل على هامش المؤسسة الثقافية هو المعبر الحقيقى عن التغيير الذى حدث: فقد تفكك البناء المنظم الذى أشاعته الرواية والقصة الواقعيتان ولم يعد للقصة بداية ووسط ونهاية بشكل محدد ولم تعد البيئة هى تلك البيئة الواضحة التى يخوض البطل صراعا فى نطاقها ويغيرها بفعله الإيجابي ، ذلك أن الكاتب قد شعر على عكس كاتب الواقعية بالعجز عن السيطرة على هذه البيئة وهكذا فقد تداخلت الأزمة والأمكنة فى القصة الواحدة ، وأحيانا فى المشهد الواحد من القصة. وفى مقابل البطل الواقعى الإيجابى الذى يحمل رايات الثورة الظافرة ظهر البطل الضد أو فلنسمه بصراحة البطل المهزوم ، ذلك أن حس الهزيمة الداخلية كان أبرز سمة للواقع الجديد فى الستينيات الذى حظر

كل محاولة للتعبير الحّر عن الذات وللتحرك الفعال . وكان الوصف الدقيق للأشياء وللجزئيات غير المترابطة يعبر بدقة عن عالم نفسى فقد التماسك والترابط فى مقابل عالم خارجى شديد الصلابة والتحديد .

كانت هذه سمات عامة مشتركة فى الأدب الذى كان يتشكل بعيدا عن المؤسسة ، وقد ظهرت كما قلت بصورة تلقائية ودون اتفاق مسبق ، ورغم ذلك فقد كان لكل كاتب من الكتاب الجدد (فى حينها) صوته المميز ورؤيته التى لا يشاركه فيها أحد . وإذا كانت هذه السمات العامة ظاهرة فى كتابات الجيل الذى تلا كتاب الواقعية فإن وجه الشبه بينهم ينتهى عند هذا الحد ويظل إبداع كل منهم خارجا عن نطاق الأطر واللافتات الجاهزة . ولعل هذا هو أحد أسباب حيرة النقاد فى تسمية هذا الأدب ، حيث اقتصر على تسميته بأدب الستينيات دون مزيد من التحديد ، وهى تسمية لا تدل فى رأيى على شىء على الإطلاق .

غير أن أبرز سمة مشتركة فى تلك المدرسة الأدبية غير المسماة كانت بطبيعة الحال هى أن عملها كله كان صيحة احتجاج وتمرد . كانت تلك الأعمال دعوة غير مباشرة للتغيير لأنها تقول بكل وضوح وصدق إن هناك صدعا فى الدولة وصدعا فى الروح . ومادمت فى هذه السطور أتكلم عن نفسى فسأسمح لنفسى باقتباس فقرة من مقال للدكتور صبرى حافظ يعلق فيها على مجموعة الخطوبة التى كتبت قصصها فى الستينيات إذ يقول (ما أن تقرأ بهاء طاهر دفعة واحدة حتى يتخلق فى داخلك سؤال يهتف : أى عالم غريب هذا ؟. إذ القصص كلها تقدم لك تفاصيل عالم كابوسى مفزع إلى أقصى حد وتقدمه بلغة عادية إلى أقصى حد أيضا ، وكأنما ليس فيه ما يثير الدهشة أو مايدعو إلى الاستهجان إذ استحالت غرابته تحت وقع معالجة الكاتب الفنية إلى نوع من الغرابة الحميمة التى يألفها الجميع) .

ورغم أننى شأن معظم أبناء جيلى من الكتاب نادرا ماتعرضت للسياسة بالشكل المباشر الذى كرسه الواقعيون الاشتراكيون ، بل ورغم أن أدبنا بدا فى ظاهره مغرقا فى الفردية وكأنه رجعة إلى الرومانسية القديمة فقد أفزع ذلك

الأدب النقاد الذين يعبرون عن المؤسسة ربما أكثر من الأدب السياسى المباشر ، وراحوا يحرضون السلطة على هؤلاء الكتاب باعتبارهم وجوديين وشيوعيين ومخربين ورجعيين فى وقت واحد . كانت التهمة تختلف من وقت إلى آخر لكى تكون مؤثرة إلى أبعد حد. ففى وقت سيطرة الاتحاد الاشتراكى والفكر « التقدمى » كنا « وجوديين وسلبيين » ولما انتهى الاتحاد الاشتراكى والتقدمية أصبحنا « شيوعيين ومن أنصار الحكم الشمولى » !.. كل التهم كانت تصلح بشرط ألا نصل إلى المؤسسة وألا نصل إلى الجمهور .

وبالنسبة لى شخصيا فقد نجحت تلك الهجمة فى إبعادى عن العمل فى الإذاعة ومنعى من الكتابة فى منتصف السبعينيات . لم تكن سلطات الأمن مسئولة عن ذلك فهى تعرف على وجه الدقة من الذى يعمل بالسياسة وفى أى اتجاه يعمل ، ولكن بعض الزملاء الأعزاء من حملة الأقلام ودعاة حرية الفكر هم الذين فعلوها وأنا لا أحب الرثاء للنفس ، سواء فى الحياة أو فى الكتابة . ولهذا فلن أتكلم عما صادفته بسبب ذلك ، ولكن من الضرورى على أى حال أن أقول إنه قد تحتم علىّ بعد أن طال أمر هذا الإبعاد أن أترك مصر وأن أبحث عن العمل فى خارجها . وهكذا فقد تركت مصر فى أول الثمانينيات لأعمل بالترجمة فى الأمم المتحدة فى جنيف ، ومازلت أقيم فيها حتى كتابة هذه السطور .

* * *

لقد حاولت فى الصفحات السابقة بالاستناد إلى تجربتى - أن أبين كيف أن الإبداع الأدبى لا يتم فى برج عاجى ، ولا بناء على قرارات ذاتية ولكنه نتيجة لتفاعل وعى الكاتب مع الواقع المحيط به وتأثره بذلك الواقع - وبما أن هذا الواقع فى حالة تغير مستمر فإن الشىء نفسه يصدق على الأدب .

ومن هنا مثلا فإن الحركة الأدبية التى بدأت فى مجملها كنوع من التمرد والاحتجاج على سلبيات الثورة الناصرية ودعوة إلى التغيير قد تحولت مع الزمن تحولا مدهشا ، عبر مراجعة مستمرة للذات ، إلى المنطلقات الأولى النقية لتلك الثورة .

ومرة أخرى فإننى أتحدث عن تجربتى الشخصية فى الأساس. فقد شهدت فى مصر قبل الخروج عملية التحول من الاشتراكية المحدودة إلى الانفتاح الاقتصادى غير المحدود . وشاهدت الأزمة الاقتصادية تتفاقم ، إذ كان رغيف الانفتاح صغيرا والأفواه المطالبة كثيرة ، فأصبحت الغلبة للأسرع اقتناصا . وأخذت المكاسب المحدودة التى حققتها الطبقات الفقيرة تتآكل بالتدريج . وفى المقابل فقد كانت الأنظمة الخليجية تحقق ثراء لم يسبق له مثيل بسبب عائدات البترول ، وتدفقت الهجرة من مصر إلى مواطن الثراء الجديد وتبدلت فى المجتمع قيم كثيرة كنا نظن أنها قد استقرت وأصبحت راسخة .

وفى تلك الأوضاع الجديدة لم يعد أدب الستينيات بالصورة التى تبلور بها يصلح للتعبير عن الواقع الجديد . ولو حاولت مثلا أن أجرى مقارنة بين مجموعة « الخطوبة » التى كتبت معظم قصصها فى الستينيات كما قلت ، وبين شرق النخيل التى كتبتها فى آخر السبعينيات (رغم أن موضوعها قد ظل يشغلنى لسنوات طويلة ، منذ حكت لى أمى عن قصة الأب والابن اللذين قتلهما الرصاص وأحدهما يحتضن الآخر) ، فإن هذه المقارنة ستبين أن هناك عناصر قد اختفت وأخرى قد ظهرت : مازالت البيئة كما كانت من قبل معادية ومستعصية على التغيير ، ومازال البطل الإيجابى الفعال غائبا ، ولكن الرؤية الضبابية الهائمة التى تسم . أعمال المرحلة الأولى تفسح المجال لصراع واضح المعالم ولحدث مطرد فى الزمن له بداية واضحة ونهاية واضحة . وهناك أيضا ملمحان فى تلك الرواية لاحظتهما فى كثير من القصص التى كتبت فى مصر فى السبعينيات وحتى الآن ، وهما العودة إلى عالم الطفولة ، أو رواية القصة من منظور طفل أو صبى ، وارتباط ذلك بمحاكمة الماضى والحاضر معا عن طريق العودة إلى التاريخ الحقيقى أو الأسطورى .

غير أن الكاتب لا يصلح ناقدا لأعماله. ولذلك فسأكتفى بالقول مرة أخرى بأن أية كتابة حية هى عملية تغير وتطور مستمرين .

ولقد حاولت منذ خرجت من مصر ألا يكون ابتعادى اغترابا عنها

ولا أعرف إن كنت قد نجحت فى ذلك أم لا . غير أن كل ما كتبته فى الغربة كان يقصد على وجه التحديد مصر وما يدور فيها . ضمت مجموعة « بالأمس حلمت بك » (١٩٨٤) بعض القصص التى كتبتها فى الستينيات والسبعينيات ، ولكن قصة العنوان وهى أول قصة أتحدث فيها عن تجربة الغربة كانت يدا ممدودة إلى مصر ، كما تلمح فقرتها الأخيرة . أما مجموعة « أنا الملك جئت » (١٩٨٥) ورواية « قالت ضحى » (١٩٨٥) فقد كتبتا بالكامل فى جنيف ، وهما أيضا عودة إلى مصر ، عودة إلى تاريخها القديم وواقعها المعاصر معا للبحث عن جوهرها النقى .

ولقد قلت إن الكاتب لا يستطيع أن يقيّم أعماله . ومن هنا مثلا فقد أدهشنى النجاح الذى حققته قصة « بالأمس حلمت بك » التى كتب عنها حتى الآن ما يقرب من عشرين مقالا ودراسة يصل حجمها مجتمعة إلى أكثر من حجم القصة عشرين مرة ، فى حين أن القصة التى اعتبر أنها أفضل ماكتبت (أنا الملك جئت) لم تحصل على ربع هذا الحظ أو أقل !... أما « ضحى » فلا تشكو حظها ، فقد أحبها القراء والنقاد جميعا . ولكن ما أسعدنى أنا بصفة شخصية هو أن الشعراء أيضا قد أحبوها ، وأن شاعرا شابا وموهوبا ، هو عماد غزالى ، قد كتب قصيدة طويلة فى حب ضحى قال فى آخرها :

عاشقوك يفارقونك

صرت أشلاء مبعثرة بنية الهجر

أهلك فى تعاميهم يحثون الخطى

. . . .

. . . .

ودعوتها

ذوّبت صبغتها بعينى ...

واحتملت جدا ولا ... وحقول فل

وانكببت ألملها

سميت أزهارا

وقلت لها انطلقى ..

وشققت أحجارا .. وقلت تشققى ،

ورقصت رقصتنا

وقلت غيابك استشرى ،

وفتحت النوافذ ...

واحتضنت حضورها الوهمى ..

ثم طلعت جنب غمامة ..

وهمست :

ضحى تجىء إلىّ ..

بينك .. والمطر !!

ما شئت كونى يا ضحى ..

وسأنتظر(١)

□□□

وإذن فعلى الإنسان ألا يسرف فى مطالبه .. وأنا قانع تماما بهذا التكريم الأخير قناعتى بالقصة التى أعجبت حضرة الناظر .

---

(١) من ديوان « مكتوب على باب القصيدة » لعماد غزالى ، ديسمبر ١٩٩٠.

أجد فى ذلك عزاء عن كل شىء .

أعرف الآن أن مابدأناه وشقينا من أجله سيجد من يكمله .

وسأنتظر !

□□□

والآن فلم تبق عندى إلا كلمة قصيرة جدا عن هذه الرواية الأخيرة « خالتى صفية والدير ».. لقد حرصت فى أولها على أن أقول إن كل أحداثها من نسج الخيال . ليس بالضبط !.. فجنين الخيال أيضا هو الواقع ، ومن ذلك أن أبى رحمه الله، كان شيخا أزهريا تقيا. وقد ربانا لنكون مسلمين صالحين، وأدعو الله أن نكون كذلك. وكان هو نفسه يتعامل مع الناس جميعا بخلق الإسلام الصحيح . وأشهد الله أننى لم أسمع منه يوما فى حياته كلمة تفرق بين الناس بمقولة هذا مسلم وهذا مسيحى .

ومن هنا ، فإن هذه الرواية مهداة أيضا إلى روحه ، وإلى كل من يحبون الوطن .

بهاء طاهر

جنيف – يونيو ١٩٩١

الجـــــزء الأول

المقـــدس بشـــاى

يبعد الدير مسيرة نصف ساعة تقريبا من آخر بيت قبلى البلد .. وأقل من ذلك الوقت بكثير على ظهر ركوبه . ومع ذلك فهو لم يكن يبين من أى مكان فى القرية.. ولا حتى من فوق سطح بيتنا الذى كان هو آخر البيوت . إسمه الوحيد المعروف عندنا هو الدير الشرقى .. فأنت تشرّق عند نهاية القرية فى طريق غير ممهد عبر الصحراء حتى تصل إلى « الجبل » كما يقول أهل البلد عن تلك التلال الصخرية البنية اللون ، وهناك تجد فى حضن التلال الثلاثة الدير بأسواره العالية التى لا يختلف لونها عن الصخور المحيطة به .

وكنا باعتبارنا أقرب البيوت إلى الدير جيرانا بمعنى ما . كانوا يهدوننا فى المواسم بلحا مسكرا صغير النوى لا تطرحه فى بلدنا سوى النخلات الموجودة فى مزرعة الدير . وأعتاد أبى فى طفولتى – منذ أكثر من ثلاثين سنة . أن يصحبنى معه فى أحد السعف وعيد ٧ يناير لكى نعيد على الرهبان . وفى عيدنا الصغير كانت أمى تكلفنى بأن أحمل من

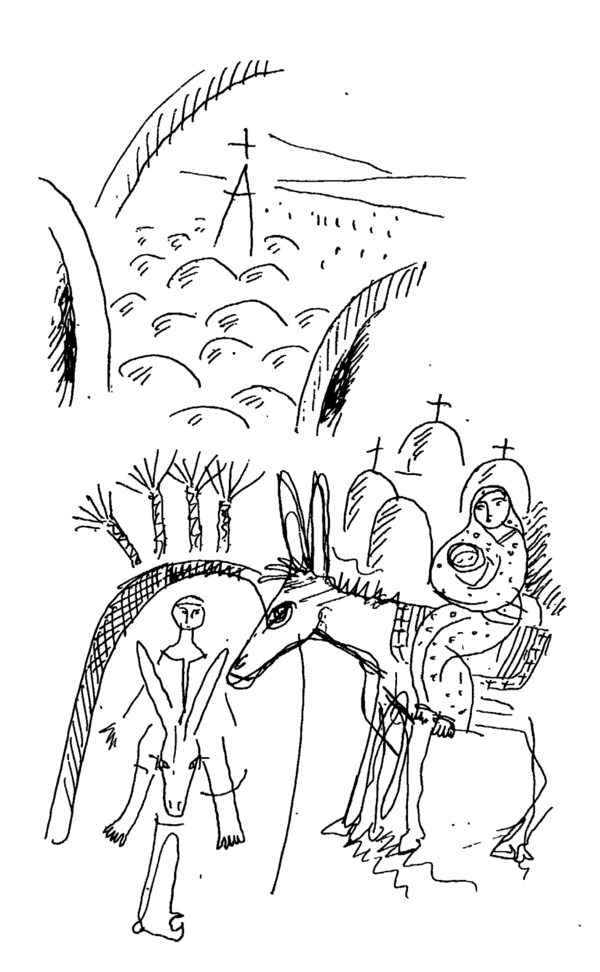
جملة العلب التى تعبئها بالكعك « علبة الدير « . كانت تحتفظ بعناية بتلك العلب المستطيلة البيضاء وتخزنها على مدار السنة كلما اشترى أحدنا حذاء جديدا .. وفى أواخر رمضان تخرجها وتنفضها من التراب استعدادا لاستخدامها. وفى فجر العيد تكون قد رصت فى داخلها أقراص الكعك المرشوش بالسكر تعلوه طبقة رقيقة من (الغريبة) المميزة بنعومتها وبحبة القرنفل المرشوقة فى وسطها ثم تطوى عليه الورق الشفاف وتضع غطاء العلبة الكرتون وتبدأ فى العد: «علبة خالتك صفية.. علبة جدك أبو رحاب .. علبة خالك عبدالرحيم .. وعلبة ... وعلبة ... ومن نسيت أيضا ؟ ولم أكن أهتم كثيرا بمن نسيتهم أمى .. فقد كان معنى تذكرها لأحد فى هذا الوقت من صباح العيد أن تحمل واحدة من أخواتى صينية أخرى من الكعك إلى بعض الأقارب البعيدين .. أما الهدايا المهمة الموضوعة فى العلب البيضاء والسهلة الإمساك باليد فقد كانت امتيازا مقصورا علىّ باعتبارى رجلا .. وكان ذلك يعفينى من الأخطار التى تتعرض لها أخواتى حين تسقط الصينية من أحداهن فى الطريق ، فيتهشم الكعك وتتفتت الغريبة الثمينة وسط التراب وترجع بذلك كله باكية إلى البيت فتتلقاها أمى بالصفعات والركلات بسبب عماها الحيثى وهى تنعى بختها المائل فى خلفتها السوداء من البنات .

وكنت فى العادة أنهى كل مشاوير الهدايا بعد صلاة العيد وأرجىء علبة الدير إلى قبل الظهر لكى آخذ راحتى بالكامل .. فقد كان من حقى فى هذا اليوم أن أركب حمارنا الأبيض الوثير البرذعه .. الذى لايركبه فى الظروف العادية سوى أبى .. وعندما أصل إلى بوابة الدير كان يفتح لى المقدس بشاى البوابة المنخفضة التى لاتكاد تبين وسط

السور المصمت وهو يحيينى متهللا : « أهلا بالتلميذ النجيب .. أهلا بابن الحاج الطيب .. أهلا بجيران الخير » ولم تكن حفاوته بالحمار تقل عن ترحيبه بى إن لم تزد .. فكان يربت على عنقه ويناغيه بعبارات التدليل ويكاد يقبله .. وانتابتنى الدهشة من تصرفات المقدس فى أول مرة ذهبت فيها إلى الدير بمفردى وسألته لماذا يعامل الحمار بهذه الطريقة ؟ فقال لى وفى نبرته شىء من العتاب : « كيف تسألنى ياولدى وأنت تلميذ فى المدرسة ؟.. ألم يدخل مخلصنا أورشليم ممتطيا هذه الدابة فتهلل له الشعب ؟.. ولم أفهم وقتها من هذه الجملة غير كلمة « يدخل » ولكنى قبل أن أسأله عن أى تفسير فاجأنى بلغز آخر حين قال وهو يضحك بشىء من الخجل مخفيا فمه وممسكا بيده الأخرى عنق الحمار « تمنيت ياولدى لو أنى عندما قدست ركبت هذا الحمار على درب مخلصنا المبارك والعائلة المقدسة من مصر إلى أورشليم بدلا من أن أركب القطار إلى فلسطين .. ثم تذكر شيئا ذات فجأة فترك الحمار وأخذ يعبث بلحيته مقطب الجبين وقال وكأنه يكلم نفسه «الحمد لله أنى قدست قبل أن يأخذ الملاعين فلسطين .. لو انتظرت حتى الآن لما أستطعت أن أقدس على ظهر حمار أو قطار، بل كان لابد أن أذهب إلى شرق الأردن » .. ثم رفع وجهه ويده نحو السماء وقال مبتهلا ..

« الرب ينصر جمال فيخرجهم من القدس كما أخرج الانجليز من مصر » .

والتفت بعد ذلك نحوى يشرح لى : شرق الأردن هذا ياولدى بلد بعيد جدا ، يركبون له الطائرات وعمك بشاى يخاف .. ولما قال ذلك أنفرجت أساريره مرة أخرى وأخذ يضحك ضحكاته العالية المتعاقبة .



كنت وقتها فى الثانية عشرة من عمرى تقريبا ، أنهيت الابتدائية ودخلت الأعدادية والمفروض أننى أفهم كل شىء ، لهذا لزمت الصمت ولم أسأل عما لم أفهم . تذكرت وقتها ما يقوله عن المقدس بشاى أهل البلد بل وحتى بعض الرهبان عندما يغضبون منه ، إذ يصفونه بأنه « خفيف العقل » ومع ذلك فقد كان المقدس بشاى أشهر أهل الدير فى القرية وإن لم نعرف وضعه بالضبط . فهو لم يكن مثل بقية الرهبان المختلين معظم الوقت فى حجرات العبادة الصغيرة التى يسمونها « القلايات » أو بالصعيدية « الجلايات » .. كان يلبس مثلهم ذلك الرداء الطويل الأسود ولكنه كان يضع على رأسه طاقية عادية بدلا من القلنسوه المقلوبة الحواف .. فهل كان راهبا تحت الاختبار، أو مجرد خادم للكنيسة أو مزارعا فى أرض الدير ؟ لم يعرف ذلك أحد رغم أنه كان وجها مألوفا فى نجعنا وفى النجوع المجاورة يعرف الجميع ويعرفه الجميع . كان هو الذى يذهب إلى الأقصر مرة كل أسبوع فى الصباح . ماشيا على قدميه فى الأغلب ثم يرجع فى المساء حاملا على ظهره وفى يديه أكياس السكر والأرز والشاى وصفائح الكيروسين ورتينات الكلويات وكل الأشياء الأخرى التى يحتاج إليها الدير.. وكثيرا ما كان يستوقفه فى الطريق فلاحون وسط الحقول يستشيرونه فى زراعاتهم أو يتوقف هو من تلقاء نفسه ليقول رأيه ونصائحه ، فإذا مر وسط أرض السواقى ووجد أن فلاحا قد زرع عدسه والأرض رطبة أكثر مما يجب يقول له مؤنبا « لماذا يا ابنى بذرت هذا العدس قبل أوانه ؟.. إحترس عندما تروى .. غيب نوبه رى وارو نوبه لكى تصح الزرعة .. ألا تعرف أن العدس لا يحب الماء ؟ » وكان المعروف أن نصائحه فى الزرع لا تخيب رغم كل ما يقال عن خفة عقله .. واعتقد البعض أن هذه البراعة سببها اتصاله

بالأرواح – مثلما أعتادوا أن يقولوا عن كل أنسان لا يتكلم مثل الآخرين . أو يأتى بتصرفات غريبة .. إذ كانوا يقولون بصوت خافت ويشىء من الرهبة « أصلهم اللهم أحفظنا » .. بل كانت قلة من الموسوسين تخاف على الزرع من عينه لأن كل نبوءاته كانت تتحقق .

أما أبى فكان يسخر من هؤلاء الموسوسين ويقول إن عقلهم أخف من عقل المقدس بشاى .

وكان يقول إن بشاى تعلم أسرارا كثيرة من زراعة أرض الدير الرملية الضنينة ولهذا فقد ظل يحرص على استشارته قبل كل زرعة .. وفى السنة التى حصلت فيها هوجة زرع القطن فى بلدنا . وأخذ كل المزارعين يقارنون بين أرباح القطن وأرباح العدس الهزيلة قال المقدس بشاى لأبى وهو يضحك « أى قطن ياحاج فى أرض بلدنا التى تطلع فيها الخبيزة بطلوع الروح ؟، إزرع ذرة أحسن » ولم يعتبر أبى هذا مزاحا فسأل أيضا حربى الذى كان أقرب أقربائنا وأمهر مزارع فى البلد فقال له حربى « لا تسمع كلام الناس ياولدّ . والدى .. قطن فى هذه الأرض ؟.. هؤلاء ناس ورقهم بحر » .

وكانت هذه العبارة تعنى أن الأنسان قد ضاع أو جن. لأن من تبحّر أوراقه الرسمية نحو العاصمة فمعنى ذلك أن مصيبة قد حلت به . ولهذا فانه لما خابت زرعة القطن ونشفت عيدانه القصيرة واللوز فيها أصغر من الحمص .. ولما لطم من سمع مشورة القطن وسيرة القطن .. حمد أبى ربنا على أنه رضى بقليله وعلى أنه قد سمع النصيحة حين جاءت .

ولكنى لم أقل لماذا كنت أستمتع بالذهاب إلى الدير وحدى فى يوم



العيد ، وذلك بعد أن دخلت المدرسة الاعدادية وصرت رجلا يعتمد عليه .
الحقيقة أننى كنت أفرح أولا لأنى وحدى . فعندما كنت أذهب مع أبى كان محتما على أن أجلس صامتا بينما يتبادل هو الحديث مع الرهبان وإن ظل يتابع كل حركاتى بطرف عينه .. فيجب مثلا أن أشرب حتى النهاية الشربات المعسلة التى يقدمونها لنا فى الدير والتى لم أكن أحبها ، ويجب ألا أحدث صوتا وأنا أشرب (وكان مستحيلا بالطبع أن أقول لأبى إنه هو شخصيا والرهبان يشربون بصوت يسبقه شهيق كالصفارة قبل كل رشفه) ويجب بعد أن أشرب أن أقوم وأضع الكوب فى الصينية بنفسى وأنا أقول بصوت عال « متشكر » ولكن يجب بعد ذلك ألا أتدخل فى أحاديث الكبار وألا أتحرك من مكانى حتى ننصرف معا وهو ممسك بيدى .

أما فى يوم العيد فكان مسموحا لى بكل شىء بعد أن أسلم علبة الدير وبعد أن أتلقى تهانى الرهبان لتوصيلها إلى أبى مع شكرهم على تعبه الذى لم يكن له وداع ولكن ربنا يجعله عامرا دائما .. الخ .. الخ .. وكان مسموحا لى أن أتجول على حريتى فى الدير الدى يشبه قريتنا إلى حد ما بطرقاته المتعرجة وبيوته أو قلاياته المبنية بالطين والتى تختلف فقط فى أن سقوفها على شكل قباب، وكان مسموحا لى أن أذهب مع المقدس بشاى إلى مزرعة الدير التى تمتد من القلايات وحتى الجبل . وكان هناك سور عال يفصل بين المزرعة وبين مبانى الدير هو امتداد للسور الكبير الذى يحيط بكل المبانى وفيه بوابه صغيرة تصل بين الدير والمزرعة .. أما السور الذى يحيط بالمزرعة نفسها فكان أكثر أنخفاضا وأقل سمكا من السور الرئيسى ، وكانت فى منتصفه فى

الناحية المواجهة للقرية بوابة كبيرة من مصراعين من الخشب السميك ، تسمح عند فتحها بدخول الدواب ونقل المحاصيل . وفى وسط المزرعة كان هناك (خص) صغير من البوص تحتضنه نخلات صغيرة متجاورة تلقى على الخص ظلا دائما . وهناك حيث يقيم المقدس بشاى معظم الوقت ، كنت أستمتع بادوار الشاى الثقيل التى يقدمها لى كوبا وراء الآخر وهو يحكى حكاياته التى لا تنتهى عن الأشياء التى رآها فى البلد منذ جاء إلى الدير شابا صغيرا قبل أربعين عاما . لم يكن يطيق الجلوس وهو يتكلم . بل يتحرك دائما : يذهب ليعطى أوامر للرهبان الذين يساعدونه فى زراعة الأرض أو يلتقط عشبا ضارا من وسط الزرع . أو يقلم إحدى الأشجار أو يسوى بفأسه جزءا من الأرض وهو لايكف عن الكلام ولا عن الضحك .. ولم يكن يغضب عندما أضحك أنا من غرابة حكاياته بل يضع يده على صدره وهو يقول مبتسما : غدا ترى أن عمك بشاى على حق .

وكان المقدس بشاى فخورا بحكاية قريتنا وكأنه قد شارك فى صنعها .

صحيح أنه لم يشهد الرواية من أولها ولكن المتنيح باخوم الذى عاش حتى جاوز المائة .. والذى لازمه المقدس بشاى عندما أتى إلى الدير فى شبابه كان قد حكى له أشياء . وهكذا فهو يعرف أن قريتنا كانت فى الأصل أرضا بورا بين تفتيش الأمراء فى الشمال والأقصر فى الجنوب .. وأن الجدود الذين بنوا قريتنا هم من الفلاحين الذين فروا من الظلم والقهر فى تفتيش الأمراء ثم استصلحوا هذه الأرض المجاورة للدير ، وكان كل منهم يمتلك القطعة التى استطاع أن يزرعها ،

ولهذا لم يكن فى قريتنا أغنياء بمعنى الكلمة . الوحيد من الجدود الذى كون ثروة هو عسران بك ، الذى أستطاع أن يشترى أرضا إلى جانب الأرض التى أصلحها . وظلت أسرة عسران أغنى أسرة فى البلد ، يثوارث كبراؤها العمودية وإن كانوا بعد جيلين أو ثلاثة قد أصبحوا مثل غالبية أهلها ، أى من الفقراء أو المستورين بالكاد مثل حالنا . كنا نحن أيضا من فروع أسرة عسران ولكننا ننتسب إلى كل إسرها الأخرى التى ترابطت جميعا بالمصاهرة ، ولم يمنع هذا من وجود ثارات بين بعض الأسر ، صحيح أنها كانت أقل من غيرها فى القرى المجاورة غير أنها لم تكن تقل عنفا .

وكنت أحاول أحيانا أن أصحح للمقدس بشاى عندما يروى لى تاريخ قريتنا ولكنى لم أفلح أنا أو غيرى فى ذلك ، كان يتمسك بعناد بتصوراته لما سمعه من المتنيح باخوم ، الذى كان الدمع يجرى من عينيه كلما ذكره، وعادة ما كان المقدس بشاى يختم حكاياته بأن يقول (أهل هذا البلد أحرارا ياولدى لايقبلون الظلم ، ولولا ..) ثم يخجل أن يبوح لى بما بعد « لولا » هذه .

وهكذا كنت أقضى معه ساعة أو نحوها فى المزرعة ثم نرجع من حيث أتينا عبر البوابة الصغيرة الى الدير ، وقبل أن أنصرف نعرج على القاعة المستطيلة التى تختلف عن كل مبانى الدير بسقفها المرتفع وبالطاقات المستديرة العالية الموجودة تحت سقفها مباشرة الشبيهه بطاقات أبراج الحمام ، والتى كانت دائما رطبة فى عز الحر . وكانت هذه القاعة تضم آثار الدير : لوحات من صور لأشخاص ونباتات مرسومة على أخشاب قديمة وعلى قطع من النسيج ، وعلى أحجار

مكسورة مثبتة على الحائط إلى جانب تماثيل صغيرة متناثرة . ولم يكن يلفت نظرى فى تلك السن غير الوجوه الملتحيه الحزينة دائما ، والدوائر المذهبة التى تحيط بالرؤوس وصور الملائكة بأجنحتهم البيضاء والذين توجد فوقهم دوائر بيضاء كالأطواق أيضا ، ولكنها تبعد قليلا عن رؤوسهم .

وكنت قد سمعت من الرهبان قصة هذه القاعة ، حكاها لى المقدس بشاى عدة مرات بكثير من الحماس.. فمنذ سنوات بعيدة زار الدير أحد الخواجات، ولما وجد اللوحات والتماثيل مكوّمة من أحد المخازن تحت الأرض تبرع لبناء هذه القاعة وأرسل مهندسا لبنائها من مصر .. ولم يكن هذا مألوفا لأن بيوت القرية وقلايات الدير أيضا . يبنيها الناس بأنفسهم مع الاستعانة بخبرة بعض الفلاحين المهرة فى البناء .. أما المهندسون فلم نسمع بهم فى ناحيتنا إلا بعد بناء المطار . ولكن بشاى يقول إن الذى بنى هذه القاعة مهندس وأنه هندسها بحيث تظل رطبة على مدار العام فلا تسيح اللوحات فى الحر .. ويضيف وهو يضغط على كلماته « صدقنى ياولدى .. بالحق مهندس من مصر هكذا سمعت من المتنيح باخوم » . أما اسم هذا الخواجة المحسن الذى تبرع لبناء القاعة فهو باستمرار عند المقدس بشاى « كب النور أبو شعر سايح » وقد تعب الرهبان معه فى محاولة تصحيح الأسم وتعبت أنا أيضا فى محاولة أكتشافه .. ففى أحدى المرات صححه أمامى أحد الرهبان وكان عصبيا إلى حد ما ، وقال وهو يضحك ساخرا « من هو كب النور ؟ .. وما الذى كبه يابشاى يافالح ؟ .. قلت لك مائة مرة اسمه كبالور أبو شعر سايح .. » وقال راهب آخر بما يشبه الهمس ولكن

بصورة قاطعة ، « بل هو كلومبر أبو شعر سايح .. » سألت الراهب جرجس الذى كان متعلما وقضى فترة فى المدرسة الأمريكية فى أسيوط عندما كان أبى يدرس فى المعهد الدينى هناك ونشأت بينهما صداقة ، فقال لى مبتسما « ياولدى أنا لا أعرف كب النور ولا كب المياه ولا كبالور ولا كلومبر كل ما أعرفه صورة له كانت مع المتنيح باخوم فى صحيفة قديمة وكان شعره مفروقا فى الوسط وينزل على جانبى وجهه سألته وأين هذه الصورة الآن ؟ فأشار بإصبعه للسماء وقال « الرب يعلم » .

وفيما بعد حين أصبحت فى المدرسة الثانوية إعتقدت أننى حللت هذه المشكلة فسألت أبى إن كان قد سمع أن اللورد كرومر زار بلدتنا وزار الدير فسألنى أبى فى غضب : كلومر من يا ولد ؟ قالوا لك أنا شيخ خفر على رأس البلد أعد الخواجات الداخلين والخارجين .. أمش ذاكر درس ينفعك بدل أن تخوض فى سيرة الناس !

وهكذا فأننى لم أعرف أبدا .. ولم يدلنى أحد على من بنى هذه القاعة الغريبة التى لا تعرف الحر فى قلب الصحراء .. كانت أيضا مبنيه من الطين مثل بقية القلايات والمبانى فى الدير باستثناء الكنيسة والسور ولكن جدارها الخارجى كان مطليا بالجير الأبيض الذى تساقط معظمه وظلت بقاياه عالقة بالطين فى مواضع متفرقة مثل النقوش .

أذكر فى أول مرة دخلت فيها تلك القاعة مع المقدس بشاى أنه توقف أمام صورة للعذراء وهى تحتضن المسيح الرضيع وتحنو عليه بعينيها وبدأ يغنى فجأة بصوت أجش « يأم النور يا .. » وردد الصدى غناءه فى القاعة شبه المعتمة .. ثم بدأ صوته يتهدج بالبكاء وهو يغنى

قائلا « علمينا كيف نشكر ونعظم القدير .. وباتضـاع القلب نعبد ربنا العالى البصير » ورحت أتأمل فى دهشة وجهه الملتحى وعينيه الواسعتين المخضلتين بالدموع وأنا أراه يزداد شبها بتلك الوجوه الحزينة المرسومة على الأحجار والأخشاب المتشققة المحيطة بنا . وقررت أن أتركه هناك وأخرج .. غير أن المقدس بشاى كف عن الغناء فجأة مثلما بدأ فجأة ، وعاد إلى الابتسام والدموع لا تزال عالقة بعينيه وقال لى وهو يزر عينيه ويميل برقبته على عادته : ولكن مارأيك أن اسمه بالفعل كب النور ؟ .. قال لى المتنيح باخوم إن هذه الدنيا ظلام وأن النور هناك . ولكن من يفعل شيئا هنا..

ثم تردد قليـلا وقـد هربت منه الفكرة وأخـذ يحك جـبـينه بيـده ويضحك ضحكاته العالية وقال لى عن أذنك دقيقة واحدة .. ثم ذهب إلى ركن من القاعة والتقط مكنسة صغيرة وأخذ يكنس أرض القاعة مثيرا سحابة من التراب . ووقفت أنتظره عند الباب وكان وقتها يقول بصوت عال وقد عادت إلى صوته نبرة الألم أنظر ، حتى أنت التلميذ الصغير ، ولا أنت من ديننا ولا نحن من دينـك تعـجبك الصـور وتحب أن تتفـرج عليها . أما الخواجات السياح الذين يأتون من آخر الدنيا ويتزاحمون ويتدافعون ويكادون يقتلون أنفسهم فى الحر والشمس من أجل نظره على تماثيل المساخيط الكفار فى (برابى) الأقصر ، فلا أحد منهم يضع حصوة ملح فى عينه ويأتى لينظر إلى صور العذراء الطاهرة ، ويقـولون بعد ذلك إنهم نصـاري .. وكان قد كف عن الكنس فاعتدل ممسكا ظهره بيده وقال وهو يتنهد ، بالصعيدية الصميمة « جبر ياخذهم كلهم » !

ولم يكن لتلك العبارة على قسوتها أى معنى سيء فى بلدنا ، بل تستخدم فى جميع حالات الغضب والسرور والمزاح ، وأحيانا دون سبب على الإطلاق مثل صباح الخير ومساء الخير .

وكان المقدس بشاى آخر من يتمنى الموت لأى إنسان ، رأيته بعينى ذات يوم يبكى وهو يضمد ساق أرنب جريح فى مزرعة الدير بالقطن والشاش . ولم نكن نحن أيامها نرى هذه الأشياء إلا فى المستشفيات . كان أقصى علاج عندنا للجروح أن نكبسها بالبن ، وفى معظم الأحيان أن نتركها للشمس .




الجزء الثانى

خالتى صفية

كانت علبة الدير هى آخر مشاويرى فى صباح العيد ، فبعد العودة من هناك كان العيد الحقيقى يبدأ حين ألتقى بأقاربى وأصحابى ونبدأ اللعب ونقرر الذهاب إلى الأقصر لنركب الدراجات المزخرفة الإطارات بالورق الملون وندخل السينما .

أما أول علبة كنت أحملها سعيدا ومسرعا فهى بالطبع علبة خالتى صفية .. كنت أتوقع عيدية سخية وإلحاحا على أن أبقى معها بعض الوقت . ولم تكن خالتي صفية تكبرنى بأكثر من سبع أو ثمانى سنوات، كما أنها لم تكن في الحقيقة خالتى . وكنت أعتبرها أجمل انسانة فى العالم ، لا أستثنى سوى فاتن حمامة التى وقعت في غرامها من أول فيلم شاهدته لها في سينما الأقصر.. وكانت أسعد لحظات طفولتى حين تضمنى خالتى صفية إليها وأشم رائحة عطر الياسمين الذى تغمر به جسدها . هذا عند ما كانت فى الماضى تتعطر . أما فى ذلك الوقت عندما كنت أحمل لها علبة الكعك ، فقد كانت تطاردنى نصائح أمى التى تظل تكررها دون انقطاع وهى تشجعنى : أعرف أنك عاقل ، أعرف أنك

لن تفضحني ، ماذا ستقول ؟.. ستقول هذه العلبة لحسان . إياك .. إياك أن تقول أمي ترسل لك هذه العلبة ، وكيف ستدخل البيت ؟ .. فأرد على أمي « بدون زيطة » وتقول هي تمام .. تمام . ناصح ولدى .. إياك أن تظهر الفرحة أو تقول عيد مبارك أو أى شيء فقط تدخل وتسلم على خالتك وإذا كان حسان صاحيا تعطيه العلبة من سكات أو تضعها على جنب دون كلمة .. ثم تمصمص أمي شفتيها وربما مسحت دمعة وهي تقول : مسكينة صفية ، مازال عيدها بعيدا .

ربينا معا أنا وخالتي صفية . وعيت عليها في البيت مثل واحدة من أخواتي الأربع ، وكن جميعا أصغر منها سنا باستثناء البكرية « ورد الشام » التي أسماها أبي هكذا تيمنا بأسم جدته ، ولكن أمي علمتني منذ الصغر أن أقول لصفية ياخالتي .. وكانت صفية بنت خال لأمي توفي أبوها وأمها معا في واحد من أوبئة الملاريا التي كانت تضرب بلدنا كل حين . ولما كانت أمي أقرب من بقي لها ، ولما كان أبي أبن عم لأمي في نفس الوقت ، فقد كان طبيعيا أن تأتي لتعيش معنا . بالطبع هي أيضا قريبة لكل القرية .. مثلي ومثل الجميع ، فكلنا أبناء عمومة أو خئوله من قريب أو بعيد ، من أول عمدتنا حامد عسران إلى أصغر فلاح أجير . غير أننا نحن كما قلت كنا أقرب الأقرباء ، وكان أبي الذي قضى سنتين في المعهد الديني في أسيوط ويخطب أحيانا في المسجد يوم الجمعة ويؤم الناس للصلاة في غيبة أمامنا ، قد أعتبره قاضي الأقصر . وهو من قريتنا أيضا ، الوصي المأمون على تربية اليتيمة وعلى رعاية ميراثها .

ومنذ الصغر كانت صفية تلفت الأنظار بجمالها . كانت دقيقة

الملامح . صغيرة الفم والأنف وكلما قصت جزة من شعرها الأسود نما واسترسل على ظهرها ناعما وغزيرا حتى يتجاوز الطرحة السوداء التى كانت تغطى كتفيها وظهرها . أما عيناها فكان جمالهما فريدا : كانتا ملونتين ولكنى لا أستطيع أن أصف لونهما ، أقرب وصف لهما أنهما كانتا عسليتين فاتحتين فى الظل ، أما فى الشمس أو فى النور فكانت هاتان الحدقتان الآسرتان تصبحان ذهبيتين وتميلان إلى الخضرة وتمتزج فيهما ألوان كثيرة أخرى .. كثيرا مارأيت فى صغرى رجالا ونساء يبترون حديثهم حين تتطلع خالتى صفية من خلال أهدابها الكثيفة إلى من تحدثه . وكانوا يتمتمون بافتتان بعد لحظة صمت « بسم الله ماشاء الله » وكثيرا ما كانت أمى بعد أن ينصرف الضيوف ترقيها وتبخرها خوفا عليها من العين ، وكان هذا يثير غيرة أخواتى ، لولا أن عشقهن لها لم يكن يقل عن عشقى ، إذ كن يتعلقن برقبتها ويقبلنها طول النهار ، وكنت أنا محروما من ذلك لأن أمى وأبى اعتبرانى من سن السادسة تقريبا « رجلا » يجب أن أتجنب اللعب مع البنات ومع خالتى صفية بالذات .

ومثلما كانت خالتى صفية جميلة بين البنات كذلك كان عمى حربى جميلا بين الرجال ، كان ابن عم لأبى من بعيد ، يتيم الأب والأم هو الآخر، ولكن أرضه كانت تجاور أرضنا وكثيرا ما شارك أبى فى الزرع ، وكان يتردد على بيتنا باستمرار ويعتبره أبى المحروم من الأشقاء أخاه الأصغر ، مثله مثل أمى التى كانت تخاطبه أيضا بلقب الأخوة : « ياولد والدى » .

ومع أن خطاب صفية بدأوا يتوافدون على أبى منذ كانت فى

العاشرة تقريبا فقد قال فى حسم إنه لن يفكر فى تزويجها قبل أن تبلغ السن الشرعى وهو وقتها أربعة عشر عاما . وكان أبى يريد أيضا أن تتعلم خالتى صفية مثل أخواتى اللائى أصر على أن يكملن الابتدائية على الأقل ، ولكن أمى التى تسامحت مع أبى على مضض فى مسألة دخول أخواتى إلى المدرسة لم تصبر على أن تكمل صفية فيها عاما واحدا ثم صممت على أن تبقى فى البيت ، قالت إنها بالكاد تقيها من العين وهى ملازمة للبيت فماذا تفعل وصفية تخرج كل يوم ويراها من هب ودب ؟. قالت إن البنية نجمها خفيف ، سريعة التعرض للحسد ، وإنها منذ دخلت المدرسة انتابتها كل الأمراض والعلل ، ولما كانت أمى تعتبر صفية مسئوليتها المباشرة فقد استجاب أبى لإلحاحها وأبقاها فى البيت . ولم تفلح أخواتى . ورد الشام وسكينة ورقية ، فى الوصول إلى هذه النتيجة رغم بكائهن وتوسلاتهن : لم يكن نجمهن خفيفا وكان أبى عنيدا .

ومع ذلك فلم تكن المدرسة ولا السن الشرعى هما السبب الوحيد لرفض أبى لخطاب صفية ، كان هناك قبل كل شىء آخر أحساس فى بيتنا وخارج بيتنا بأن صفية لحربى ، رغم أنه لم يطلبها من أبى قط بل كان يعاملها مثل بقية أخواتى معاملة الأطفال .

كان حربى طويل القامة ، بشرته خمرية ، ولكن فى خديه دائرتين مشربتين بحمرة الدماء يحددهما شاربه الأسود الذى يزيده وسامة بطرفيه المفتولين باستمرار . وكانت تبرز فى رقبته العالية تفاحة آدم تتحرك بشكل واضح أرتفاعا وانخفاضا كلما تكلم أو غنى ، فقد كان صوته القوى هو أجمل مافيه ، يعرف الكل ذلك فيلحون عليه لكى يغنى

فى الأفـراح والليـالى ، أو يتطوع هو من تلقاء نفسـه تحيـة لصـاحب المناسـبـة فـيـغنى أغنيات بلدنا مـثل « عـبادى ياواد عـبادى » أو « رن الخلخال ع السلم صـحانى » أو يرتجل ويضـيف إلى الأغانى الشائعة مدحا يذكر فيه صاحب الفرح أو المناسبة . وكان من المعروف أن حربى على علاقة بأمونة البيضاء الحلبية (أى الغجرية) ذات الشعر الذهبى التى ترقص فى الأفراح ، وأنها تعشـقه من دون الرجال على كثرة من كانوا يتمنون القرب منها . وذات مرة ارتجلت أغنية فى أحد الأفراح سرعان ما شاعت فى القرية ، يغنيها الرجال حين يهل عليهم حربى وهم يبتسمون ويغمزون بعيونهم ويرفعون عقيرتهم مترنمين «حاربى قلبى .. حاربى قلبى ، ولما لاقيته ما حاربى قلبى » وكان حربى يبادلهم الإبتسام والدعابة دون حـرج .. فـفى ذلك الوقت كـان العـشـق مـسمـوحـا به فى قـريتنـا لمن لم يتـزوجـوا ، بل وحـتى لبـعض المتـزوجين الـذين فـلت عيـارهم . وعلى كل حـال فلم يكن هذا العـشق سـبـبـا يمنع حـربى من التقدم لصفية لو أنه أراد .

ولكن هل كانت صفية تحب حربى ؟ .

لا أستطيع أن أجزم ، غير أنى أذكر من بدء طفولتى أنها وبقية أخـواتى كن فى العـادة يلتـصـصن عليـه من خـلال الأبواب شبـه المغلقـة عندما يجلس مع أبى على الدكة فى صحن الدار يتحدثان عن الزرع أو يشربان الشاى ويتسامران . ولا أذكر إن كانت هـى أو واحدة من أخواتى التى قالت عنه حين فاجـأتهن مرة وهن يختلسـن النظر اليه « سـبـحـان الله .. مثل فلق القمر » .. ويومها هددت بأن أفضحـهن جميعا عند أمى وأبى لقلة حـيائهن فقبلتنى خالتى صـفـيـة فى جبينى وهى تسـألنى فى عتاب « وترضيك فضيحتى يا أبن أختى ؟ » .



فذاب فى قلبى كل عزم .

وأذكر فى مرة أخرى أنى رأيت خالتى صفية جالسة وحدها فى صحن الدار ولم يكن فى البيت سوانا وهى تغنى بصوت خافت «حاربى قلبى » . ومع أن أغنية أمونه البيضاء كانت أغنية مرحة راقصة اللحن ، إلا أن خالتى صفية كانت تجلس يومها على الأرض مقرفصة ، ممسكة رأسها بين يديها وهى تغنى الكلمات ببطء ، بلحن التعديد الحزين ، وهى تميل بجسمها بشكل رتيب إلى اليمين وإلى اليسار . ولما انتبهت لوجودى خلفها إلتفت إلى فجأة ببريق غريب فى عينيها وقالت بلهجة لم أسمعها من قبل « لم جئت ياولد ؟... » إمش فتجمدت فى مكانى .

لم أكن وقتها قد دخلت المدرسة بعد ، على أن السنين مرت وأصبحت فى المدرسة الأبتدائية وبلغت صفية السن الشرعى دون أن يتقدم لها حربى .. ومرت شهور وسنة وأكثر من ذلك واستبدت الحيرة بأبى وأمى بسبب ذلك الصمت . وبدأ أبى يواجه مشكلة فى رد خطاب صفية ، ولكنه ظل يجد أعذارا .. وحين بلغت صفية السادسة عشرة تقريبا جاء حربى إلى البيت وجاء معه البك القنصل .

كان البك القنصل حفيدا لعسران الكبير ، حائزا مثله على رتبة البكوية من أيام الملكية ، ومع أنه كان أكبر مالك للأرض فى البلد وصاحب أكبر بيت فيها ، إلا أنه كان يعيش فى الأقصر فى بيت مستقل يقال عنه فى بلدنا « السراى » . وكان هذا البيت جميلا بالفعل كالسراى ، كان معماره شرقيا ، مدخله وواجهته من أقواس متعاقبة

أشبه بالبواكى ، وأثاثه فى الداخل من المقاعد الخشبية والموائد والأرائك المطعمة بالصدف ، وكانت هناك سجاجيد فارسية ثمينة على الأرض غير تلك المعلقة على الجدران ، ونجف يتدلى من السقف وحداته من الفضة المشغولة تحتضن مصابيح كالشموع ، أما أجمل ما فى هذا البيت ، وما أستطيع أن أتخيله فى كل لحظة كأنى أراه ، فهو ذلك الممشى الطويل فى الحديقة الذى تحف به على الجانبين أشجار النخيل الأفرنجى ذات الجذع الأبيض كأعمدة قصيرة على مسافات منتظمة ، يصل بينها إفريز مكسو بفسيفساء زرقاء تتخللها زخرفة من الورود البيضاء ، وكان ذلك الممر ينفسح فى منتصفه بالضبط ليصبح على شكل دائرة فى وسطها نافورة صغيرة إفريزها من تلك الفسيفساء الزرقاء المزخرفة نفسها ، ويخرج الماء منها فى أقواس هابطة كسعف النخيل .

وكان البك القنصل هو فخر قريتنا وأحب شخص فى البلد إلى قلبى فى طفولتى . كان يلبس باستمرار فى الصيف وفى الشتاء بذلة داكنة وقميصا أبيض وربطة عنق ، حتى فى عز الحر ، وحتى وهو يتجول فى طرقات قريتنا المتربة ، أما الطربوش الأحمر الذى لم يعد أحد غيره يرتديه فى بلدتنا بعد الثورة فكان يزيده فى عيوننا مهابه ، وكان دائما ما يحشو جيوبه بالملبس والنقود الفضية الجديدة ويوزعها على الأطفال . واعتاد أن يختصنى فى الأعياد بجنيه جديد غير مطوى ، هو الجنيه الوحيد الذى كان يصلنى . وإن ظلت أمى تصادره وتعطينى إياه على أقساط لكى لا تتلف الثروة أخلاقى .

ورغم أن البك لم يعمل فى حياته قط فى السلك الدبلوماسى ، ولم يمارس شيئا غير الزراعة والتجارة، فقد كان قنصلا حقيقيا . كان



لسبب لا أدريه حاصلا منذ صدر شبابه على رتبة القنصل الفخرى من المملكة اليونانية ، وأنعم عليه ذلك الملك القديم بنيشان ، مازال موجودا فى بيته فى القرية فى علبته القطيفة الحمراء ، كما أنه مازالت هناك صورة للبك القنصل فى شبابه ، وهو يضع هذا الوسام على جيب سترته ، والطربوش فوق جبينه ، وقد اجتهد المصور فى الإضاءة ليخفى سمرته الغامقة واتساع فمه ، كما صنع فى الصورة شيئا فنيا ، إذ أن نصفها الأسفل غير مكتمل ، ولكن هالة بيضاء غير مستوية تقتطع من جاكتة البك السوداء فى مواضع مختلفة وتجعل صورته الفوتوغرافية مثل تمثال نصفى مبتور لكى يبرز الوسام بكل جلاله .

ولم يتغير البك كثيرا بعد الثورة ، صحيح أنه الوحيد الذى طبق عليه قانون الأصلاح الزراعى فى بلدنا غير أنه قد تقبل ذلك بكل هدوء . قيل أن بعض الفلاحين الذين وزعت عليهم الأرض ذهبوا إلى البك وقالوا له إن الأرض أرضه حتى ولو كتبتها الحكومة باسمائهم ، ولكن القنصل رفض أن يسمع أى كلام من هذا النوع ، قال لهم هذا رزق بعثه الله لكم فتمتعوا به ، وفيم أريد أنا الأرض ؟ .. من الذى سيرثنى غيركم ؟ كلنا أهل وأقارب إن احتجتم إلى شىء فتعالوا إلى وإن احتجت أنا الى شىء فسآتى اليكم .

ومع ذلك فقد انصرف البك عن الزراعة بعد أن حددت ملكيته بمائتى فدان وترك الأرض لأبن أخته حربى يشرف على زراعتها ويحاسبه عنها ، واستقر هو فى الأقصر حيث كان يملك محلات كبيرة لتجارة الجملة، وكان يسير مراكب إلى السودان تنقل البضائع منها واليها ، واستغل ما بقى من وقت فى بناء العمارات فى الأقصر وفى قنا ،

بل قيل وفى القاهرة نفسها. واستطاع البك أيضا أن يقيم علاقة طيبة مع رجال الثورة .

وقد ظل أبى يفخر لوقت طويل بأن المرحوم صلاح سالم زار السراى ومعه وفد من أعيان السودان .. وبأنه كانت هناك يومها تشريفة من الجيش بالبريهات الحمراء تحيط بسراى القنصل .

المهم جاء حربى إلى بيتنا وجاء معه البك القنصل لكى يطلب البك خالتى صفية لنفسه .

ألجمت الدهشة أبى وظل يتطلع صامتا إلى البك الذى كان قد جاوز الستين من عمره فى ذلك الوقت .. وكان قد تزوج مرتين وترمل مرتين دون أن ينجب ، ولكنه قال مهونا على أبى الذى لم يجد ما يقوله إنه يحتاج فى هذه السن إلى من ترعاه وإنه فكر فى البنت اليتيمة .

ولما ظل أبى صامتا قال حربى فى حماس إنه شرف لأى بنت أن يتزوجها البك ويرفع مقامها ، فقال أبى متلجلجا إنه شرف لبيته أن يزوره القنصل ، وأنه من أجل ذلك الشرف مستعد أن يعطيه رقبته نفسها لو طلبها أما زواج البنت فلابد فيه من رأيها .. لم يكن سهلا على أبى أن يرفض البك مباشرة مثلما رفض بقية الخطاب وحاول بهذا الكلام أن يجد مخرجا ، ولكنه عندما قال ذلك صفق حربى بيديه وقال انحلت المشكلة والحمد لله : هذا الجمل وهذا الجمال . نسأل صاحبة الشأن.

قام أبى متثاقلا : وفى تلك اللحظة كانت أمى تأتى من داخل البيت وهى تحمل بنفسها صينية الشاى وعليها أبريق من الصينى وأكواب صغيرة مذهبة الحواف ، لا تخرج الا فى مثل زيارات القنصل .

ولما كانت يداها مشغولتين فقد كانت تضع الطرحة التى تخفى وجهها حسب الأصول بين أسنانها وتزم عليها شفتيها وتقدمت ببطء حتى وضعت الشاى على منضدة صغيرة أمام الكرسى الكبير ذى المسندين الذى يجلس عليه البك والذى حملناه أنا وأبى من الديوان إلى صحن البيت لهذه المناسبة . ولما وضعت أمى الشاى أمام القنصل الذى كان عمها وخالها وجدها عن طريق أنساب وقرابات مختلفة تقدمت منه وصافحته وقبلت يده .. سمح لها بذلك وهو يضحك ضحكاته الخافتة المتقطعة ويقول : أهلا ياحماتى .. العقبى لشربات الفرح . نظرت أمى نحو حربى وقالت متهللة صحيح ؟ صحيح ياحربى ؟ وخشى أبى أن تقول كلمة تضيع الدنيا فى هذه الظروف . فجذبها من يدها وهو يتضاحك ويقول « ان شاء الله .. ان شاء الله » وجذبها جذبا تقريبا إلى داخل البيت .

تقول ورد الشام إن صفية تضرج وجهها لما حمل أبى اليها الخبر . وسألته بصوت خافت «حربى قال ذلك ؟ » فرد أبى مستسلما وهو يزفر « نعم يابنتى حربى قال ذلك » تقول أختى إن صفية رفعت بعد ذلك رأسها وكانت عيناها نصف وجهها وكان فيهما البريق الغريب وقالت لأبى بهدوء : أنا موافقة ياوالدى .. سأتزوج القنصل وسأعطيه ولدا .

قال أبى فى دهشة : ولكن يابنتى ..

فقالت خالتى صفية وهى تخفى وجهها بطرحتها « الأمر أمرك ياوالدى .. المشورة مشورتك والأمر أمرك ولكن أنا موافقة على البك القنصل ..

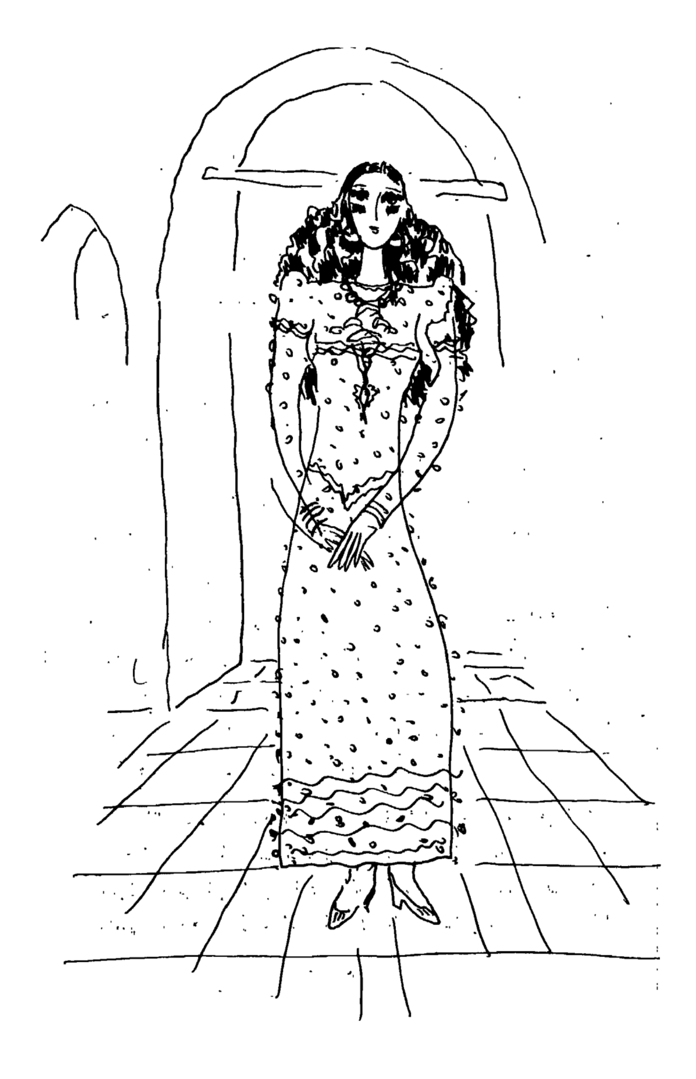
ظل أبى صامتا لفترة .. ثم تنهد قائلا « بل الأمر لله » وخرج ينقل للبك موافقة صفية . وهكذا تزوجت خالتى صفية وانتقلت من بيتنا لتعيش فى السراى .

وترددت فى البلد شائعات بأن الفرح سيحييه عبدالوهاب وأم كلثوم مثل زيجتى البك السابقتين ، ولكن القنصل كان وقورا وقال وهو يضحك « فى هذه السن ؟ تكفى الشربات وذبيحه للفقراء ».

وخاب أملى فى فرح عظيم لخالتى صفية مثلما خاب أملى فى زواجها نفسه . فلم يكن هناك طبل ولا غناء واقتصر الأمر على عشاء فى السراى وانطلقت زغاريد أمى وأخواتى وقلة من القريبات .. ورقص حربى فى حديقة السراى رقصة التحطيب على أنغام مزمار واحد .. وغنى للبك القنصل أغنية مشهورة بدّل فيها وحور ليقول فى نهايتها « وقنصلنا سيد الرجال » .

وبعد أن أنصرف المأذون دخلت علينا خالتى صفية نحن أقرب أقربائها .. كانت تضع الأحمر والأبيض وتلبس فستانا أبيض لامعا يصل إلى ما قبل كعبها .. ولما رأيتها خجلة لا تدرى ماذا تفعل بيديها تشبكهما مرة وتضع يدا على قلبها مرة أخرى وهي تجيل بيننا عينيها الجميلتين فى حيرة أخفيت وجهى بيدى وبكيت دون صوت .. ثم خرجت خلسة وجلست عند النافورة لآخذ راحتى فى البكاء.

ولكن بعد الفرح بأيام بدأت صفية تظهر على حقيقتها .. وكم كانت أمى فخورة بها .. كانت تقول أنا ربيتها وهى شرفتنى .. كانت تقول إن البك القنصل لم يعرف فى عمره الطويل سعادة كالتى أعطتها له صفية . كانت تقول إنها بين يدى البك وتحت رجليه .. ثم تلتفت إلى



أخواتى تقول فى حسرة .. ليس مثل المصائب التى تنام حتى آذان الظهر .. وكانت أمى بذلك تظلم أخواتى اللائى كن رغم صغر سنهن، ورغم ذهابهن إلى المدرسة ، يفعلن كل شىء فى البيت من الخبيز إلى الطبيخ إلى الكنس ، ولكن هذه كانت طريقتها فى التربية .

غير أن خالتى صفية شرفت أمى حقا : ففى سراى القنصل المملوء بالخدم كانت صفية تقوم مع الفجر، وتفعل مثلما كانت أمى تفعل ، تعد الأفطار لزوجها بيديها وتظل واقفة بين يديه. تلبى طلباته وتتأكد من أنه قد أفطر كفايته وانه لم يكن هناك شىء ناقص أو شىء على غير هواه. وبعد الإفطار تكون قد أعدت له بذلة نظيفة مكوية وقميصا أبيض شاهقا وتساعده بنفسها فى ارتداء ثيابه ثم توصله حتى الباب وهى تنفض شيئا من جاكتته أو تسوى ياقة القميص وتوصى السائق بأن ينتبه وهو يقود السيارة وأن يذكر البك بموعد الغذاء إن أنساه العمل فى المكتب نفسه .

ومازلت أنا حتى الآن ، بعد أن كبرت كثيرا يحيرنى هذا السؤال: لماذا أحبت صفية بعد حبها الأول الجميل ذلك الرجل الذى يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف عمرها ؟ ولكن هل سأعثر فى يوم على جواب حقيقى ؟ وهل سأعرف إن كانت قد أحبت القنصل لسبب ما أو لعلة ما أو أنها قد أحبته فحسب مثلما تحب أية أمرأة أى رجل ؟

ذلك ما أفكر فيه الآن. من بعيد فى الزمن ومن بعيد فى المكان ، أما فى حينها وأنا طفل فى أول المدرسة الابتدائية فلم يكن هناك ما يشعل الغيرة فى قلبى مثل ذلك الحب الغريب ، بل الوله ، الذى كانت خالتى صفية تعامل به البك القنصل . كانت تبكى ويصفر وجهها إن

تأخر عن موعد عودته . ترسل خدم المنزل جميعا ، كل واحد إلى جهة للبحث عنه . ولا تذوق طعاما إن أصابه مجرد برد خفيف أو صداع ، وتظل مقعية جنب فراشه طيلة أيام وعكته .. لا تجدى توسلات أمى أو توسلات البك القنصل لها بأن تنام قليلا أو تأكل قليلا .

ولم يكن عشقها يعرف الزمن ، بل ظل ثابتا إلى الأبد .

أما سعادة البك العظمى فكانت حين عادت أمى من الأقصر ذات يوم، ثم راحت وهى الوقورة دائما تطلق الزغاريد فى البيت وتطلب من البنات أن يزغردن : فرحة العمر يابنات.. الفرحة التى لم تكن على البال ولا على الخاطر.. خالتكم صفية حامل..

تجمعت البلدة كلها فى بيتنا وراحت أمى توزع الشربات والكركديه .. ولما سمع حربى بالخبر وجاء مهرولا أختطف بندقية أبى المعلقة على الحائط وراح يطلق النار فى الهواء وراح يرقص وهو يقول « والله وربنا كتب لك الفرح ياخال .. والله وربنا عوض صبرك وأعطاك على قد طيبة قلبك » وراح حربى يوزع الشربات بنفسه على الرجال الجالسين فى الديوان . وتقول أمى أنها لم تر حربى فرحا كفرحته فى ذلك اليوم .

وتقول ولكن أولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال ، وتقول وعيناها تدمعان : والله فى الدنيا كلها لم يظلم أحد مثل حربى ظلم الحسن والحسين ..

إذ كيف تصادف أن فرحة البك الطاغية بمولد نجله حسان لم يكن يوازيها غير غضبته الهائلة على حربى الذى كان من قبل حبيبه وموضع سره ؟ كيف وصل الأمر بقنصلنا الطيب ، الذى لم يخرج منه العيب يوما ، أن يطرد حربى من حديقة السراى ويأمره إلا يضع فيها بعد الآن قدمه وألا يريه بعد اليوم وجهه ؟



جاء حربى يومها مذعورا إلى أبى .. طلب إليه أن يجعله يفهم.. أقسم انه لو كان هو شخصيا قد تزوج وأنجب لما فرح مثل فرحته لمولد حسان ، قال لأبى لو يعرف البك القنصل كم أنه يحبه كخاله ، بل كأبيه الذى مات عنه صغيرا ولم يعد يذكره بل يحبه أكثر من نفسه ، إذ من يكون هو جنب القنصل ، جنب كبير العائلة وفخرها ؟ قال ، أقسم ، إنه مستعد أن يموت فداء تراب حذاء القنصل. فما الذى حدث ؟ لطم على وجهه وهو يسأل أبى ما الذى حدث حتى يغضب عليه البك ؟ أخرج مسدسه من جيب الصديرى وقدمه إلى أبى .. قال له أن يعطيه للبك لكى يضرب به حربى بالرصاص أن كان قد علم أن كلمة واحدة خرجت من فم حربى تسىء اليه . قال لأبى أن يضربه هو نفسه بالرصاص توا أن كان قد سمع أنه أخطأ فى حق البك .

رد أبى يد حربى الممدودة بالمسدس وهو يقول بصوت حزين « لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة .. » ثم التفت نحوى وأمرني أن أشد الحصان إلى العربة .. وكان معنى ذلك أنه سيذهب إلى الأقصر لتوه .. ولكن حين حاول حربى أن يذهب معه قال له أن ينتظره .

خرج أبى قبل الظهر ، وجلسنا أنا وحربى ننتظره فى الديوان خارج البيت . وغاب أبى فى الأقصر . طوال غيبته لم يذق حربى لقمة .. رد الصينية التى حملتنى أمى بها مرتين دون أن يمس طعاما . لم يقبل شيئا غير الشاى وظل متربعا على (الكنبة) وهو يهز نصفه الأعلى هزا رتيبا ويدمدم بعبارات غير مسموعة ولا مفهومه.. يلتفت

نحوى بين الحين والآخر ويكرر ذاهلا ما كان يقوله أبى « لا حول ولا قوة إلا بالله » وهو يضرب كفا بكف.. تضرجت وجنتاه الحمراوان وكان يقفز كلما سمع صوتا أو كلما خيل إليه أنه سمع صوتا ويجرى خارج البيت.

غير أن غيبة أبى فى الاقصر طالت ولم يرجع إلا قبل الغروب، عاد مكفهر الوجه وقال بصوت حاسم وهو يثب من العربة مخاطبا حربى الذى كان واقفا هناك وكأنه يترنح .. ياولد والدى فوض أمرك إلى الله . إنس البك هذه الأيام ، لعل الله أن يفعل أمرا ..

ولكن هذه العبارات لم تكن تكفى حربى ، فأمسك بذراع أبى وهو يقسم عليه أن يوعيه بسر غضب البك عليه . عبثا حاول أبى الذى كان مجهدا أن يتهرب من الحاج حربى بقوله إن أناسا أوقعوا بينه وبين القنصل : من هم هؤلاء الناس ؟ ماذا قالوا ؟ لماذا لا يواجهه البك بهم ؟ كيف يصدق وشايه فى حقه وهو الذى عاش عمره كله يخدمه دون أن يطلب أجرا ؟

ولم يستطع أبى أن يرد على كل هذه الأسئلة : لم يعرف من هم هؤلاء الناس . رفض البك كل رجاء لأبى بأن يبوح بأسمائهم .. وهو لم يعرف كيف أستطاع القنصل أن يصدق هذه الوشاية حاول ما استطاع أن يقنع البك ببراءة حربى لكنه لم يستطع .

وأخيرا ، وأمام الحاج حربى الذى ظل ممسكا بذراع أبى دون أن يكف عن السوال . قال أبى نافد الصبر ، غاضبا تقريبا : يقولون ياولد والدى إنك أقسمت أن تقتل حسان كى لا يرث البك ، والقنصل يصدق ما قاله الملاعين .. أستغفر الله العظيم .

سحب حربى يده من ذراع أبى وظل يحدق فيه فترة فى

ذهول ، ثم أدار ظهره ومشى دون كلمة ، وبعد أن ابتعد كثيرا عاد وكنا أنا وأبى نفك الحصان من العربة وقال بصوت هادىء تماما : وأنت ياولد والدى .. أنت تصدق أني قلت ذلك أو أني أفعله ؟

رد أبى بصوت متعب ومختنق: لا ياحربى . أقسمت للقنصل بحياة ابنى هذا إنك لاتقولها ولا حتى تفكر فيها .. ولكن لا فائدة .

فقال حربى بصوته الخافت : الحمد الله .

وعاد يمشى بطيئا وصامتا .

وفى الليل بينما كان أبى وأمى يتعشيان سمعته يقول لها بصوت حزين : حتى صفية تصدق أن حربى قال ذلك .

فقالت أمى فى غضب .. ولكن من الذى قال هذه الوشاية عليه لعنة الله ؟ فسكت أبى طويلا كأنه يفكر قبل أن يقول بلهجته نفسها : نعم ، لعنة الله على من قال . ثم تنهد وقال : بدأ الشر وليته يقف عند هذا الحد .

وكان أبى قد حذرنى أن أكرر كلمة مما سمعت أمام أى أنسان .. ولكن لم يكن هناك دا ع لأن أقول شيئا .. فبعد أيام كانت القرية كلها تتكلم عما حدث .. وبدأ كثيرون يدافعون عن حربى ، وبدأ آخرون يصبون على النار الزيت ، وكثرت المراسيل بين الأقصر والقرية . وتطوع البعض ، قال ، لحراسة السراى وبنادقهم فى أيديهم . وكان هؤلاء ممن يغارون من حربى بسبب علاقته القديمة بالبك أو ممن يغارون من حربى لأنه حربى . ولكن البك لما رآهم واقفين حول السراى كالعمل الردىء ، نهرهم وطردهم وقال إنه يعرف كيف يحمى بيته . غير أن القنصل اشتعل غضبا .

ثم ما هى إلا أيام ووقعت واقعة كان لها ما بعدها . ففى عز الليل تحطم زجاج الشرفة فى الغرفة التى ينام فيها حسان وصرخت الخادمة التى تنام معه وطلبت النجدة ، وهبت صفية وهب البك وهب الخدم وتلفتوا من الشرفة وفتشوا الحديقة ولكن المعتدى لم يظهر له أثر .

وقال أبى فى شىء من الحيرة وشىء من اليأس ان الزجاج يتهشم أحيانا بدون فعل فاعل ، ولكن كيف كان يمكن اقناع البك بأن ذلك لم يكن من فعل فاعل ؟.. وكيف كان يمكن أقناعه بأن الذى حاول أن يحطم فرحة القنصل بقُرة عينيه لم يكن هو حربى ؟.. دخلت الفكرة رأس البك وعششت فيه : أن حربى يريد أن يقتل حسان لكى لا يستأثر بالأرض والميراث .. ومن الذى كان يستطيع أن يخرج فكرة دخلت رأس القنصل ؟

بعدها تغير كل شىء .. أصبحت السراى مثل نقطة البوليس يحيط بها رجال يحملون البنادق ، وانتشر هؤلاء الرجال عند البوابة وفى زوايا الحديقة . والمصيبة أنهم لم يكونوا من أهل البلد بل كانوا عربانا غلاظا لا يعرفون قيمة لأحد فتعرض الداخل والخارج للسؤال والبهدلة ، ولم تنج حتى النساء. ولم يعتذر البك القنصل الذى تغيرت أحواله كثيرا عما كنا نعرفه من قبل ، لم يعتذر عن تصرفات رجاله . والذى حدث أن أبى منع أمى من زيارة صفية فى تلك الأيام ، وخفت رجله هو عن الأقصر والسراى .

أقتصر الأمر أيامها على مجىء صفية بالسيارة كل حين لكى تزورنا بمفردها . تدخل ضاحكة مهللة وتقبل أمى وتقبل أخواتى ولكن الأحوال لم تعد كما كانت.. لم تعد أمى تضربها على صدرها وهى

تضحك من قلبها وتقول « يخيبك ياصفية » لم تعد ترفع التكليف.. ولما وجدت أخواتى أمى تعامل صفية بتحفظ واحترام ، كففن عن المزاح معها كما كن يفعلن من قبل ، بأستثناء عبلة الصغيرة التى كانت فى الرابعة من عمرها فى ذلك الحين ، وكان عبثها وتعلقها برقبة صفية يبدو غريبا فى هذا الجو الثقيل ، فكنت اشتمها وأنهرها ولكن خالتى صفية تقول باحتجاج : لماذا تفعل ذلك؟ أتركها .. عبلة حبيبتى وسأزوجها لحسان ، وكأنما تذكرها تلك العبارة بشىء فتقول « آه تركت حسان وحده والبك يوشك أن يعود ـ لابد أن أرجع للأقصر » وتمسك أمى فيها لتبقى للغداء وتظل تلح بينما تلح صفية فى الاعتذار .

ولكن ليت الأمور كما قال أبى وقفت عند هذا الحد وليت أمى لم تحّملنى يومها الغداء إلى بيت حربى المجاور للحقول. أذكر ذلك اليوم الذى مضت عليه كل تلك السنين وكأنه الأمس . أذكر أنه كان يوما شتويا جميلا دافىء الشمس كأنه الخريف الذى تخف فيه وقدة الشمس وتهب فيه النسمة الرائقة لاتحمل التراب ولا الزوابع . وكان يوما جميلا لأن زرع العدس الذى تغطى سيقانه القصيرة الخضراء الحقول فى الطريق نمت أزهاره الصغيرة الصفراء بين عشية وضحاها فزينت الأرض كلها بتلك الدوائر الصغيرة ، بحرا ذهبيا يحرك النسيم موجاته برقة ويحمل رائحتها االغضّة الهادئة التى ظلت عمرى كله أحبها واسترجعها بعد أن بعدت تلك الأيام .

ولماذا كان ذلك اليوم الجميل الرائق هو الذى حدث فيه كل شىء ؟؟

كان حربى قد تمنى على بنت والده أن تعد له فطيرة لبن بيديها ،. فأعدتها وأرسلت معها لقمة غداء ، جلسنا نأكلها أنا وهو أمام بيته الملاصق للحقول ، بالقرب من ظل نخلة عالية . ووسط تلك السكينة رأينا على البعد عربة البك القنصل ، العربة (الفورد) الكبيرة الحمراء تتقدم ببطء على الطريق البعيد وهى تلمع فى الشمس ، يراها حربى مثلما أراها ولكنه يحنى رأسه على لقمته ولا يتكلم : فقط تحتقن البقعتان الحمروان فى خديه ويغشى الحزن عينيه. ثم تطن العربة وتئزّ وهى تقترب من أول الحقول فينقبض قلبى حين أرى بابها يفتح وينزل منها حرس البك من الرجال الغرباء وبنادقهم فى أيديهم . ثم ينزل البك مرتديا بذلته الكاملة وطربوشه كالمعتاد ، فى يده عصاه ذات المقبض العاجى المطعم بالذهب ، يتقدم من الحقل الذى نجلس عنده يحف به حرسه . لا يمشى هو ورجاله على شريط الأرض المحاذى للقناة بل يخوضون بأقدامهم فى الزرع ويدوسون النبت والزهر، ويترك حربى غداءه ويقف طويلا وشامخا وهو يقول مرحبا يا خال. لا يرد البك عليه يتقدم منى وأنا أقف إلى جوار حربى ويضع يده على رأسى يسألنى وهو يبتسم كيف حال أمك وأبيك ؟.. أذهب وقل لهما أن يعدا الشاى لى وللرجال . ولكنى لأول مرة أخاف منه ومن ابتسامته ومن اسنانه الصناعية وهى تبرق وسط وجهه الأسمر. أجرى مبتعدا وأقف إلى جوار حربى أكاد التصق به وأنا اسمعه يكرر مرة أخرى : مرحبا ياخال ، شرفت بلدك وأرضك . وقبل أن يدرك حربى أو ادرك أنا أى شىء يكون البك قد مد يده فجأة بصفعه على خد حربى أرتج لها طربوشه وأرتج لها جسده العجوز كله وهو يصيح بصوت مشروخ لم اسمعه منه من قبل « تعرف الأدب ياكلب ؟ » ولم تفلح يد البك الرخوة حتى فى أن تجعل

رأس حربى تهتز ، غير أنى أحسست بجسمه كله يتوتر للأمام وكأنه سيندفع بهذا الجسم الفارع نحو البك فيطرحه أرضا ولكنه فجأة أحنى رأسه وقد غاب الدم من وجهه كله وقال : حقك يابك . أنا ابنك وخادمك.. إن كنت قد أخطأت فمن حقك أن تؤدبنى.. أقتلنى أن شئت أما أنا فلن أغلط فى حق والدى .

ولا أظن أن حربى وهو يقول ذلك كان قد رأى البنادق الأربع المصوبة اليه، ولا أنه كان يرى أحدا غير القنصل غير والده ذلك الذى ظل حتى النهاية يحاول أن يقنعه وأن يسترد رضاءه عليه .. ولا أظن أن البك الذى ظل واقفا يرتجف وهو محمر العينين بعد أن صفح حربى قد سمع شيئا مما قاله ابن اخته ، ولكنه سمعنى أنا حين قلت له فى ضراعة وكأنى أبكى : فى عرضك يابك .. لا تضرب حربى .

نظر البك نحوى بعينيه المحتقنتين كأنه يرانى لأول مرة ، كأنه لا يعرفنى أبدا .. وقال لرجاله وهو يشير إلى « شيلوا الولد بعيدا » فجذبنى أحدهم ولكمنى بامتداد ذراعه بقضبة قوية فى صدرى فسقطت على الأرض وقد ضاع منى النفس.. كلما حاولت أن ألقف الهواء شعرت أن أشواكا تخز صدري وأن قلبى سينفجر . وظللت ملقى فى مكانى لا أستطيع أن أقوم ، بالكاد يتردد فى النفس ، لكنى أفتح عينى رغم ذلك على سعتهما ، لا أريد أن يفوتنى شيء مما يدور ، رأيت حربى وقد هم بأن يهجم على ذلك الذى رمانى ولكن فى لحظتها قال البك لرجاله وهو يلوح بعصاه .. « وقلعوا هذا الكلب » .. وظللت أتابع فى رعب حربى وهو يقاوم أربعة رجال ينزعون عنه الجلباب والصديرى والفانلة حتى لم يبق عليه سوى سرواله الطويل .

كان يضربهم وكانوا يضربونه .. وكان يصرخ وسط الضرب والمقاومة .. فى عرضك ياخال.. أقتلنى بيدك ولا تترك الغرباء يفعلون ذلك يا والدى.. لا تحملنى هذا العار ياجدى .. أقتلنى أنت .

ولم يكن البك يسمع شيئا ، ولم يكن يرانى أو يرى شيئا .. كان يخلع طربوشه ويجفف عرقا على جبينه وهم يخلعون عن حربى ثيابه ، وحين أنتهوا وحين وقف أمام القنصل ملطخ الوجه والصدر والسروال بالدم ، وقد انتفخ وجهه وتورمت عيناه قال البك بصوته الهادىء : لا تخف يا حربى ولا تتعجل الموت . سأجعلك تتمنى الموت دون أن تراه .

ظهر فلاحون ومزارعون على أطراف الحقل. وقفوا متجمدين لما رأوه .. وتجاسر أحدهم على التقدم نحو البك فرأوا واحدا من الغرباء يصوب نحوهم بندقيته . لكن البك مد يده وأنزل ماسورة البندقية ولم يزد على أن التفت برأسه نحو الواقفيبن هناك وقال : لا أريد أن يبقى أحد هنا . أشار بعصاه إلى حربى الذى كان الغرباء الآخرون يكبلونه وقال : هذا الكلب عض اليد التى تطعمه فدعونى أربيه .

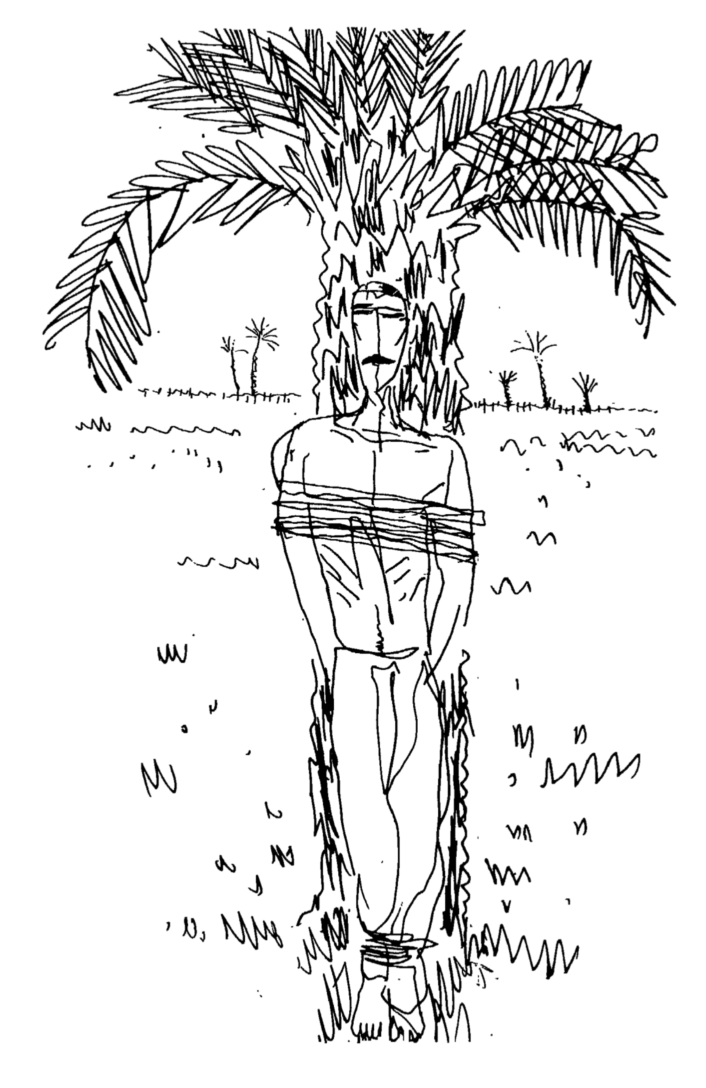
قال أحد الفلاحين : يبوس يدك ورجلك يابك وتسامحه ؟ كلنا نبوس يدك .. فزمجر البك الذى لم يسمعه أحد يرفع صوته من قبل وصرخ بصوت حاد : إمشوا ياكلاب ! كلكم لو أستطعتم لهجمتم على بيتى مثله ، كلكم لو أستطعتم لقتلتم ابنى لكى ترثونى حيا . إمشوا ياكلاب ، فزع الفلاحون الواقفون هناك وهم يرونه يصرخ ويلوح بعصاه نحوهم وتراجعوا مبتعدين ، ولكن فلاحا عجوزا لم يبال بأن يقول بصوت مسموع : هكذا كان آل عسران يفعلون بالفلاحين فى الزمن القديم ، أتركوهم الآن ينهش كل واحد منهم لحم الآخر .

ولم ير الآخرون رأى هذا العجوز ، فحين لمحنى أحدهم ملقى على الأرض، ذكره ذلك بشىء فقال أجروا ، نادوا أباه .. الحاج وحده هو الذى يستطيع أن يوقف ذلك .

كنت لاأزال مشلولا من الألم والرعب ، لاأستطيع أن اتحرك من مكانى وتمنيت بالفعل لو يأتى أبى لأنه هو وحده الذى كان يستطيع . وسمعت حربى الذى ظل الدم ينزف من أنفه يقول بصوت حزين : كيف أرفع عينى فى واحد من أهل البلد بعد اليوم ياخال ؟ كيف رضيت لابن أختك هذا العار ولِمَ لم تقتلنى حين تمنيت عليك ؟

التفت البك نحوه وقال : إن كان هذا مايضنيك ياحربى فسأقلع لك عينيك حتى لا تري . ثم أشار إلى الرجال فجذبوا حربى نحو النخلة ، وأخرج أحدهم من جيب جلبابه حبلا طويلا ملفوفا وراح يفرده. كان حربى الآن مستسلما لهم تماما ، أنتهى كل شىء منذ أن نجح الأغراب فى أن يعروه من ثيابه أمام الناس فتهدلت يداه وتهدل جسمه كله وتركهم يفعلون به ما يشاؤون . فقط ظل يهز رأسه وكأنه يكلم نفسه : يصح ياخالى ؟ يصح ياوالدى ؟ أما البك فكان يتابع رجاله وقد أصبح العرق يغمر وجهه كله وقال لهم : كما أفهمتكم تماما أنت وهو . قيدوه إلى النخلة من صدره ومن رجليه ولكن أتركوا مسافة بينه وبين النخلة .

حمل اثنان من الغرباء حربى مقيد الذراعين والساقين وأخذ آخران يربطانه إلى جذع النخلة بحبل حول صدره وآخر حول رجليه كما أمر البك، وتركهم حربى يفعلون به ذلك كما لو كان جثة هامدة ، وتقدم منه البك وقد التقط عصاه وقال وهو ينخسه بتلك العصا فى صدره :



تريدنى أن أقتلك ياحـربى ؟.. تريدهـم أن يحسـبـوك على آدميا وأن أذهب من أجل عويل مثلك فى سين وجيم ؟ مـا قـولك ياحـربى فى أن تتمنى الموت فلاتجده ؟.. الآن ياحربى سـتقبل يدى لكى أفعلها ولكنى لن أريحك بالموت .

وأشـار البك إلى رجـاله فـبـدأ أثنان منهم كل واحـد من ناحـيـة يجذبان الحبل المرخى قليلا حول صدر حربى ويرفعانه ببطء ثم يهبطان به إلى الأرض . وفى أول مرة لم يصرخ حربى وليف النخلة الخشن يحز فى جلده ويمزق لحم ظهره وساقيه ولكنه صاح بعبارة حشد فيه كل ألمه : لم ياخال ؟ لم كل هذا ؟

ولم يسمع الخال شيئا بل استمر ينخس حربى فى صدره وهو يضحك ويقول : ما رأيك ياحربى ؟ مارأيك أن ترحل عن البلد فلاترينى وجهك بعد اليوم ولا يرى أحد من الناس وجهك حتى تموت بعيدا عنى وعن ولدى ؟.. مـارأيك ياحـربى ؟.. مـارأيك فى فكرة أحسن ؟ مـارأيك أن تقتل نفسك بيدك فتريح نفسك وتريحنى ؟ مارأيك ياحربى ؟..

وكان حربى قد بدأ يتأوه وهو يفتح فمه على سعته وهم يدورون به حول جذع النخلة لليمين واليسار ويرفعونه ويخفضونه وقد بدأ الدم يطفر من جنبيه ومن كتفيه فبدأت صيحاته ترتفع بعبارة واحدة يكفى .. يكفى ياخال .. يكفى ..

وقـال واحـد من العربان بصـوت عـال مـحـذرا القنصـل : يابك ضـاع جلد الظهـر ونحن الآن فى اللـحم. أنت قلت أنه لن يموت ونـحن لم نتفـق على جنـايات .

ولم يسمع البك ، ولكن حربى الذى ضاع جلده والذى كان الدم يطفر الآن من كل مكان فى ظهره وفى ساقيه وفى ذراعيه صرخ صرخة واحدة هائلة وهو يندفع إلى الأمام بقوة الألم وحده ، فأهتزت النخلة العالية من عنف أندفاعته وانقطعت الحبال التى تقيده اليها . تمزقت فى أندفاعته الحبال التى تقيد صدره وهو يطلق صرخته « يكفى » وانحنى بسرعة البرق فخلص قدميه واختطف واحدة من بنادق العربان الملقاة فوق الزرع ودفع البك فى صدره وهو يواصل صرخته يكفى ، وصرخت أنا أيضا حين رأيت ظهره المدمم تتدلى منه أنسجة من الجلد واللحم ، وصرخ البك فى رجاله « أضرب يامرأة أنت وهو » .

ولكن كبيرهم قال : نحن لم نتفق على جنايات يابك .. الشرط نور يابك .. ثم بدأ العربان يجرون نحو العربة .. وتركوا البك يتراجع متعثرا وحربى يدفعه بماسورة البندقية فى صدره وهو يواصل صرخته يكفى .. ى .. ى .. ى ... ى قبل أن يطلق رصاصة واحدة فى صدر البك الذى ترنح لحظة جاحظ العينين وقال « وى » قبل أن ينكفىء على وجهه وسط الزرع .

ورأيت أبى آتيا يجرى من بعيد وهو يصيح « وقف ياحربى .. وقف يابك .. وقف ياحربى » وكان العمدة يجرى خلفه ومعه الخفر .. وكان العربان قد وصلوا السيارة وبدأت تتحرك مبتعدة بهم وكان حربى يجمع ثيابه والدم يشر منه وهو يجرى والبندقية فى يده نحو الجبل .. وكان البك ممددا ببذلته الداكنة وسط الزهر الأصفر .

ووقف أبى يتطلع فى ذهول إلى ذلك كله حتى أنه لم يرنى .. ولسبب لا أدريه انحنى يرفع من فوق الزرع طربوش البك الذى



تدحرج بعيداً وراح ينفضه ويمسحه بكم جلبابه وهو يكرر « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان العمدة حامد عسران هو الذى جلس وأغلق عينى البك المفتوحتين ثم وقف وراح يضرب كفا بكف وهو يقول «ضاعت البلد » .

غير أن البلد لم تضع ، ولكن حربى هو الذى ضاع ، فمن بعيد كنت آراه يجرى وهو يحجل وقد أحنى نصفه العلوى وراح يترنح بينما تتكرر صرخته الوحيدة : يكفى !.. يكفى !

❑❑❑

وبعد ذلك كان أبى هو الذى سلمه . عثر عليه قرب الليل ممداً على بطنه وسط الرمل الأصفر .

قال أبى : وجدته مازال متشبثا بالبندقية وظهره مثل قربه سوداء تجمد فوقها الدم ولم يشعر بى حين حملته بين ذراعى.

وهكذا نقله وهو بين الحياة والموت إلى المستشفى فى الأقصر .. انتظر أبى إلى أن أفاق من غيبوبته وأقنعه بأن يبلغ عما حدث وأن يسلم نفسه .

وهكذا بحرت أوراق حربى ..

بحرت أولا إلى محكمة الجنايات فى أسيوط . ثم بحرت إلى محكمة النقض فى القاهرة ..

وفى أسيوط حكموا عليه أولا بالسجن خمسة عشر عاما مع الشغل ، وفى القاهرة اقنع المحامى المحكمة أنه كان يدافع عن حياته

وقدم شهادات أطباء كبار من الجامعة تثبت أن ما حدث عند النخلة كان يمكن أن يقضى عليه .. ولما أعيدت المحاكمة خفض الحكم إلى عشر سنوات مع الشغل .

وقالت خالتى صفية لما سمعت خبر تخفيض الحكم : وماله ؟.. ليتهم يفرجون عنه غدا .. أريده هنا أمام عينى .. وأريد أن يراه حسان ليعرف من الذى سيقتله عندما يكبر.

وكانت الناس تسمع ذلك وتسكت .. حتى أمى وأبى وأنا كنا نسكت . .

وكيف أصف ما حدث لخالتى صفية بعد مصرع البك ؟..

لم أر كيف تلقت الخبر فقد ظللت مريضا بعد لكمة الأعرابى ، ألفظ كل طعام يدخل جوفى وجاء أبى بطبيب إلى البيت لم تفلح الأدوية التى كتبها فى وقف القىء ولا فى وقف نوبات الصراخ التى كانت تنتابنى فى الليل .. والتى كانت تجعل أمى الساهرة إلى جوارى تبكى وتلطم وتعدد على أساس أننى أرى ملاك الموت يدعونى فيضطر أبى إلى أن يحملها حملا خارج الغرفة التى أنام فيها وهو يصرخ : لا تميتيه بالحياة ..

غير أنى لست مهما فى هذه القصة .. المهم ما حدث لخالتى صفية .. سمعت أنها لم تبك ولم تصرخ لما نقلوا لها الأخبار . قيل أنها ضمت حسان إليها وظلت صامته فترة طويلة قبل أن تقول ياحزنك ياصفية . أمك وأبوك ورجلك وأبنك .. ثم قبلت حسان وهى تقول : مكتوب علينا ياولدى . قيل أنها نهضت بعد ذلك وتجولت فى غرف السراى ..



غرفة غرفة .. تتطلع داخل كل منها ثم تغلقها بالمفتاح على حالها . أمرت الخدم أن يخرجوا جميعا من السراى .. ألا يمدوا أيديهم على شىء أو يغيروا من وضع كرسى واحد .. فقط. طلبت منهم أن يأخذوا كل ما فى البيت من طعام وأن يخرجوا ، ثم لبست « الخلالية » السوداء التى تغطى الجسم من الرأس إلى القدم فوق فستانها البندرى وحملت حسان بين ذراعيها وقالت للسائق أن يتجه بها إلى البلد .

عرجت أولا على بيت العمدة ، الذى حملت اليه جثة البك ، وحيث جاءت الشرطة وجاءت النيابة . لم تنزل من سيارتها وحين جاء العمدة وانحنى على النافذة وقال لها البقية فى حياتك يابنتى .. قالت خالتى صفية : أنا لم أسمع ما قلته ياعمدة ، جئت لأقول لك شيئاً واحدا ـ إدفن ابن عمك بمعرفتك ولا تقبل فيه عزاء . قل للجميع لا مأتم ولا عزاء .. المأتم سيكون فى السراى يوم يثأر حسان لأبيه .. وإياك أن تقول لهم من الذى قتله .. فهمت ياعمدة ؟

لم يرد العمدة . كانت النيابة هناك تسأل عن القاتل وكانت صفية هنا تقول له ألا يتكلم . ولكن صفية لم تكن تطلب ردا . فقد أشارت إلى السائق أن يتحرك ، وذهبت إلى البيت الكبير فى البلد ، بيت البك الذى كان نادرا ما يقيم فيه ، وكان مثل بقية بيوتنا غير أن له سورا من الطوب ويضم تحفا لاتعرفها بيوتنا .

وأدهشنى التغيير الذى حل بخالتى صفية بعد مصرع البك وبعد أن عادت لتقيم فى القرية .

لا أتحدث عن أنها خلعت الفساتين التى كانت تلبسها فى السراى وبدأت تلبس مثل بقية نسائنا الجلباب الطويل الأسود ، ومن فوق

الخلالية حين تخرج ، ذلك شيء طبيعي مادامت في الحداد ومادامت قد اختارت أن تقيم في البلد ، ولكني أتحدث عن التغيير الذى أصاب شكلها . ففي خلال شهر أصبحت خالتي صفية الجميلة ، التي لم تكن قد بلغت العشرين بعد ، تشبه امرأة عجوزا وتتصرف مثل العجائز . أو أصبح مسموحا لها أن تتصرف مثل العجائز .

لا أعرف تفسيرا لما حدث . ولكن خطوطا كالتجاعيد بدأت تظهر في وجهها وفي رقبتها . ولم تعد تكتفي بالجلباب والطرحة حين تكون في البيت بل كانت تربط أيضا منديلا عريضا أسود حول رقبتها . وكان جسدها الذى امتلأ قليلا بعد مولد حسان قد أصبح أشد نحولا مما كانت قبل أن تترك بيتنا . وبدأت بشرتها الناعمة تبدو خشنة وتزداد سمرة يوما بعد يوم . وهل يجوز أن أنقل ماسمعت أمي تقوله لأختي من أنها منذ نزلت البلد لم تعد تكثر من الاستحمام كما كانت تفعل في السراى أيام كانت تستحم في اليوم الواحد مرتين ؟.. لا أعرف إن كان ذلك بسبب الحزن أو بسبب اليأس أو بسبب الكسل ، ولكن شيئا ما بدأ يحدث أو يخيل إلى أنه يحدث مع أزدياد سمرة بشرتها : خيل إلى أنها بدأت بالتدريج تشبه البك وأن لهجة كلامها بدأت تشبه لهجته . وكانت هي تتحدث عن القنصل دائما باستخدام الزمن الحاضر ، كأنه لم يقتل ولم يغب عنها .

فحين تؤنب الخدم في البيت تقول إن هذه الفوضى لاتعجب البك ، أو ماذا يقول البك لو رأى ذلك ؟ أو أن البك يفضل أن تزرع أرض الحوض الشرقي قصبا ، وهكذا .. وكانت تقول هذه الأشياء بهدوء وثقة حتى إن الغريب كان يعتقد أنها تتكلم عن شخص موجود في الغرفة



الأخرى . وفى خلال شهور قليلة لم يعد هناك ما يشبه خالتى صفية التى عرفتها غير عينيها الملونتين . وحتى هاتان العينان أكتسبتا وسط وجهها المسمر رهبة مخيفة بالنظرة الصارمة التى تطل منهما . رأيت أطفالا يبكون بمجرد أن تنظر إليهم ويتشبثون بذعر بجلابيب امهاتهم . وازداد خوف الأطفال منها بسبب الأساطير التى بدأت تحيط بها . فقد كانت فى بعض الأحيان تقول أشياء لا ينتظرها أحد .

رأيتها مرة فى أوائل أيام اقامتها فى البلدة بعد وفاة البك بأسابيع تنظر فى عينى امرأة من زائراتها وتقول لها : منذ متى وأنت حامل يابنت ؟ فأخفت المرأة وجهها بطرحتها وقالت فى خجل « ياليت ياخالة صفية ، نزل على ظهرى من أقل من اسبوع » ولكن خالتى صفية قالت فى حسم « أنت حامل » . وبعد أقل من شهر كانت المرأة تحكى القصة فى كل بيوت البلد وتقول ان الخالة صفية عرفت أنها حامل من قبل أن تعرف هى .. وبعد ذلك بقليل قالت خالتى صفية لأحد المزارعين وهى تتفق معه على زراعة قطعة من الأرض «حاسب من الثعبان الذى يلبد جنب الأرض .. وإن قتلته فلا تترك وليفته وإلا بحثت عنك وقتلتك ولو اختفيت فى سابع أرض » . ولما رأى الرجل بعدها الثعبان الكبير الأسود يزحف نحوه وهو يسوى الأرض قطع رأسه بالفأس . ولم يطمئن بعد ذلك إلا حين فتش وسط عيدان الحلفا القريبة حتى وجد حيه تحتضن بيضا فأجهز عليهاو هشم بيضها .

ومع ذلك فلم يكن فى تلك الأشياء التى تقولها خالتى صفية أية خوارق .. هناك نساء غيرها كن يعرفن بالفراسة وحدها المرأة الحامل بل ويحددن نوع الجنين فلا تخيب نبوءتهن . وكان الحوض الشرقى

مـجاورا لدغل من الحلفا . التى تلبد فـيـهـا الثـعابين . فلم يكن تحـذير خـالتى صـفـيـة يخـرج عن المألوف . ولكن بعـد هاتين الحـادثتين أصـبح الاعتقاد الشائع فى البلد أن صفية مكشوف عنها الحجاب .. وأن البك يأتيها فى المنام كل ليلة ليحدثها بما كان وبما سيكون .

وهكذا أصبحت صفية الجميلة التى كان يشتهيها كل الرجال هى الخالة صفية التى يرهبها الناس. وأصبح من حقها أن تتصرف بطريقة لا تتصرف بها فى البلد غير العجائز من النساء .. كانت تستقبل الرجال فى البيت . وتزرع الأرض بنفسها. بمعنى أنها كانت هى التى تؤجر الأرض للفلاحين وتقبض منهم . بل وتحدد لهم مايزرعون فى كل حقل ، وهذا حق لم يكتسبه حتى عجائز المالكات عندنا فقد كانت العادة هى أن توكل المرأة للتصرف فى ميراثها خالا أو عما أو اخا ، وكانت العادة أيضا أن يأخذ الوكيل لنفسه كل شىء فلا يعطى موكلته إلا ما يكفى بالكاد لطعامها وملبسها . ولم يكن هذا حال خالتى صفية التى كانت تزرع وتؤجر بنفسها ، وتحاسب عمال الدكاكين فى الأقصر ووكلاء العمارات فى قنا وفى القاهرة . الوحيد الذى وثقت فيه ووكلته كان تاجرا من الأقصر من أصدقاء البك القدامى. وذلك فقط لكى يشرف على تسيير المراكب إلى السودان ونقل البضائع . ولو استطاعت هى لفعلت ذلك بنفسها .

وكان المفلسون فى القرية ، وما أكثرهم ، يتساءلون فى دهشة عما ستفعله الخالة صفية بكل هذا المال الذى تكنزه فى البنوك وفى الخزائن الحديدية إلى جانب ما ورثته عن البك. يقولون : ماذا ستفعل بهذا كله وهى لا تتحرك من بيتها ويدها ناشفة ؟ أما خالتى صفية فلم

تكن تسمع أى نقد أو تقبل أى مزاح فى هذه الأمور . كانت تقول بلهجة البك الخافتة ، ولكن فى إصرار: لا أحد يأكل حق حسان .. مال حسان لحسان .

وشهدت بلدتنا أيضا فى تلك الأيام ظهور تاجرة أخرى وإن اختلفت الطريقة والأسباب .. ذلك أن أسونة البيضاء التى أعتقد الجميع أن فرصتهم معها قد زادت بعد سجن حربى، أعتزلت الرقص فى الأفراح والمناسبات ، وبدأت تعمل مثل بقية الغجريات : تحمل ربطة من أثواب القماش وصندوقا من البضائع الرخيصة وتنتقل بها من بيت إلى بيت ومن قرية إلى قرية .. وبدأت أيضا تخط الرمل وتضرب الودع . لم نسمع أنها عشقت من الرجال أحدا بعد حربى. وبالتدريج أصبح ظهورها فى قريتنا نادرا . وقيل أنها تخاف من الخالة صفية .. وأدهشنا ذلك لأن الغجريات كن يخفن الآخريات ولايخفن منهن . وهكذا ازدادت الرهبة من الخالة صفية عند الصغار والكبار.

وأصبحت خالتى صفية تتصرف كالعجائز فى المآتم أيضا .. وليست مآتم العزاء للنساء عندنا حزنا كلها . فالحزن الحقيقى والصراخ والتعديد يستمر فى الأيام الأولى ، وبعد ذلك ، وطوال أسابيع يتحول المأتم إلى جلسات هادئة تستمر طول النهار وتضم كل قريبات الميت ، أى كل نساء القرية ، ويحمل الطعام كل يوم من بيت أو من أكثر من بيت . وتقارن النساء بين طبيخ هذه وطبيخ تلك . وبعد الغداء تكون (الجوزة) قد أعدت مع الحطب المشتعل ، وهى (جوزة) بريئة لايحتضن حجرها غير التبغ المعسل على عكس (جوزة) الرجال ، ثم تمر على حلقة العجائز من النساء . وربما تتنازلن فأعطين انفاسا لمن



قضت مدة طويلة فى الزواج ، وبعد ذلك كله وربما بعد إغفاءة قصيرة تقوم واحدة من النســاء بالواجب فتقول بصوت ممطوط « ياحبيبى » أو « ياحبيبتى » فيبدأ النشيج والتعديد بصوت مرتفع إلى أن يخمد بعد قليل فى نهنهات من البكاء . وبعدها تدور جولة جديدة من الجوزة « وكفى ياأختى لا تقتلى نفسك ، هــذا حـرام .. ليتنى أنا التى مت بدلا منــه أو « منها » تعترضين على إرادة المولى ؟ حاشا الله ولكنها نار .. إدعى ربنا يبرد نارك .. خذى يا أختى .. خذى نفسا واهدئى قليلا » ويستمر ذلك إلى ما قبل الغروب .. ولما كانت المآتم تستمر أربعين يوما ، فقد كانت تشغل النساء طول العام تقريبا متنقلة من بيت إلى بيت .. ومع أن (الجوزة) محرمة فى العادة على البنات وعلى الشابات ، فقد انتزعت خالتى صفية حق (الجوزة) من أول مأتم حضرته بعد وفاة البك . وبعد قليل كانت عندها جوزتها الخاصة فى البيت .. كانت تسحب نفسا طويلا وتكتم النفس مثل المدمنين من سنين ثم تخرج الدخان من أنفها على مراحل متعاقبة فى سلسلة من الدوائر الصغيرة .. ولم أكن أحب النساء اللائى يدخن الجوزة ولكنى ظللت أحب خالتى صفية .

حزنت فى أول مرة تشاجر معها أبى .. ظلت صفية بعد وفاة البك على احترامها له بأعتباره (والدها) فكانت تقبل يده وتخفى (الجوزة) قبل أن يدخل عليها ، ولم يتغير من ذلك شىء رغم علمها بأنه هو الذى أنقذ حياة حربى، وأنه الذى شد له المحامين فى أسيوط ومصر ، وأنه يذهب لزيارته فى الســجن فى مصر مرة كل شهر .. كانت تعرف أن هذا واجبه .. ولم يناقشـها أبى أيضا فى رفضـها لإقامة مأتم للبك ولا فى حديثها عن ثأر حسان لأبيه .. كان كل منهما يعرف أن الآخر يفعل ما عليه

ولكن أبى استشاط غضبا حين علم أن صفية أسمت حمار السباخ الأسود « حربى » وأنها كانت تأمر الخادم الموكل بالزريبة بأن يحضر (حربى) إلى فناء البيت فتضربه بالعصا ثم تأمر حسان الرضيع أن يبصق على حربى . وهكذا تعلم حسان أن يبصق قبل أن ينطق . كنت مع أبى يوم ذهب اليها . وحين دخل على صفية وأرادت أن تقبل يده سحب يده منها بعنف وقال لها : قلبى غاضب عليك ياصفية. ظلت تقف أمامه محنيه الرأس ولكنها بعد قليل رفعت إليه وجهها وقالت وهى تضرب صدرها وعيناها مغرورقتان بالدموع التى غشتهما فجأة « نارى ياوالدى .. دعنى أطفىء نارى » .

لم تسأله عن سر غضبه.. كانت تعرف مثلما يعرف .

قال لها : أطلبى من ربنا الصبر .. ولكن ما تفعلينه حرام .

غاضت الدموع من عينها فجأة مثلما طفرت فجأة .. وحلت محلها تلك اللمعة المخيفة فى العينين وقالت محتجة .. أليس من حقى أن أعلم ولدى ؟ ألا يجب أن يعرف من الذى قتل سيد الرجال لكى يثأر له ؟

تفادى أبى الإجابة على هذا السؤال وقال لها بلهجة هادئة : الذى قتل أباه ياصفية رجل لا حمار . وكأنها لم تفهم فقالت : رجل ؟

فعاد أبى إلى غضبه وقال : إبن آدم ياصفية . ابن آدم ربنا كرمه وحرام أن تسمى حمارا باسم رجل .. حرام .. هل فهمت ؟

أطلقت صفية صرخة عالية وقد تشنج جسمها كله وراحت تدق صدرها دقات متعاقبة وهى تقول وثأرى ياحاج ؟ ونارى ياحاج ؟



فرد أبى : أنا لم أتكلم عن ثأرك ياصفية ، أنا أقول :

ولم تكن صفية تسمع ما يقول . كانت تدور حول نفسها فى فناء دارها الواسع فى الشمس المحرقة ، تلطم خديها وتجذب شعرها وإلى جوارها واحدة من الخدم تحمل حسان الصغير الذى بدأ يبكى حين رأى أمه تصرخ لكنها لم تبال به ، كانت تولول وكأنها تغنى وهى ترقص رقصتها الجنونية : « حربى حمارى .. حربى حمارى .. والحاج يريد أن يأخذ منى ثأرى .. يرضيك يابك ؟ يرضيك يابك ؟ »

وكانت تتطلع نحو السماء مخاطبة البك الذى تراه وحدها .. وسحبنى أبى من يدى .. كان هو أيضا فى حالة من الغضب لم أره فى مثلها من قبل .

وقال : والله ياصفية لو لم ترجعى عما أنت فيه فلن أدخل لك دارا بعد اليوم . حرام . إبن آدم لايكون حمارا .

ولكن من كان يكلم ؟

كانت صفية تواصل هذيانها وهى تدور حول نفسها يتفصد منها العرق الغزير ولكنها لا تكف ، وكان أبى يسحبنى ، يجرنى جرا تقريبا ، وهو يندفع مسرعا خارج البيت .

وفى الطريق ، وأنا أكاد أعدو لألحق به ، سألته فى شىء من الحيرة كيف يوافق صفية على أن تأخذ بثأرها بينما هو يخطب فى المسجد دائما ضد الثأر ويحاول أن يصلح بين العائلات التى تدب بينها الخصومة ، فقال أبى الذى كان فى سورة غضبه : إخرس يا ولد .

فخرست . غير أن خطاه أبطأت قليلا ، ووضع يده على كتفى وظل صامتا لفترة ، ثم ضحك فجأة ضحكة خافته وقال : إن كبر ابنك ..

توقف أبى فى الطريق ومال نحوى وهو يمسك بكتفىّ الاثنين وقد حلت محل الغضب فى عينيه نظرة تكاد تكون حزينة وقال : إسمع يا ولدى .. عندى أمل فيك .. عندى أمل فى حسان عندما يتعلم .. عندى أمل عندما تكبر أنت ويكبر هو ..

وظل ينظر فى وجهى طويلا مستفهما ، كأنما يسألنى أن كنت قد فهمت ، ثم تنهد وأمسك بيدى وعدنا نسير ..

ولم يكن أبى بحاجة بعد ذلك إلى أن ينكث بقسمه ، ولم يكن بحاجة إلى أن يقاطع خالتى صفية . فبعد أيام اكتشف الخدم حمار السباخ فى الزريبة نائما على جنبه وقد تشنجت سيقانه مرفوعة إلى أعلى ، وقيل إنه مات مسموما ، ولم تتركز الشكوك على أحد لأن من غضبوا لحربى كانوا كثيرين ..

وبعدها لم تعد الخالة صافية إلى تعليم حسان على الحمار ، اختارت طرقا أخرى .

ولكنى أحياناً ، فى أحيان نادرة ، كنت أجد الخالة صفية مثلما كانت من قبل وقد عادت صفية الجميلة التى أحببتها.

أذكر مثلا عندما كبر حسان قليلا ، عندما أصبح فى الثالثة أو الرابعة من عمره ، وكنت قد دخلت المدرسة الأعدادية وأصبحت أحمل منفردا علب الكعك إلى الأقارب وإلى الدير ..

في الصباح كنت ألبس جلبابا جديدا وطاقية جديدة وحذاء جديدا ، وربما أيضا ليست البذلة التى أذهب بها إلى المدرسة بعد أن تكويها أمى. أخرج مع أبى ، أتخلف عنه خطوة واحدة . يعانق هو من يلقاه في الطريق ويلقى عليه بتحية العيد . لا يلبس جلبابه فى هذا اليوم ، بل يلبس جبة وقفطانا مكويين عند كواء مخصوص فى الأقصر يستخدم مكواة الرجل . فقد كانوا يلحون عليه أن يلقى هو خطبة العيد. كان الكل مستعدا فى ذلك اليوم أن يفتح قلبه . أكاد أسمعه وهو يلقى خطبته بصوته القوى الرخيم : يقول « ليس العيد لمن لبس الجديد ولكنه لمن تلقاه بقلب جديد » . يقول إن نزعتم من قلوبكم الغلّ أصبح كل يوم من حياتكم عيدا . أكاد أسمعه وصوته يرق ويتهدج حين يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام . يذكر ما قاساه قبل الهجرة وبعد الهجرة ، يذكر حروبه وجروحه فيخفت صوته ويمتلىء حزنا ، ثم يعود إلى القوة والابتهاج وهو يذكر كيف أتم الله نعمته . كيف ألف بين القلوب المتخاصمة . يتوقف لحظات وهو يجيل بصره بين جمهور المصلين . اكاد أشعر به يريد أن يمسك كل واحد من كتفيه ويقول له : عندى أمل .

وبعد الصلاة كنت أرجع مسرعا إلى البيت . أتلقى نصائح أمى عما سأفعله بهدايا العيد . تكررعلىَّ ألف مرة ألا أظهر فرحا وأنا أدخل بالعلبة على خالتى صفية ، تستحلفنى مرة وتهددنى بالعقاب إن أخطأت مرة ، فأذهب إلى خالتى صفية تطاردنى تلك النصائح. أتصرف برزانة رجل يدخل على إمرأة فى حداد دائم . أضع العلبة جانبا وأقول بهدوء أمى بعثت هذا إلى حسان . لا أقول كلمة « هذا الكحك » لكى لا أوحى بالعيد .

لكن خالتى صفية يكون مزاجها رائقا فى ذلك الصباح من أجل خاطر حسان . لا تخلع ثياب حدادها ولكنها تلبس ثوبا جديدا أسود ، وتكون قد أغتسلت ومشطت شعرها ، وأخرجت (الجوزة) التى حرمت منها طوال أيام رمضان وتكون قد ألبست حسان ثيابا جديدة وأجلسته إلى جوارها . وكان ذلك والعلبة التى أحملها هما كل العيد بالنسبة لها . فلم يكن أحد يزورها فى ذلك الصباح ، وكان محرّما على الخدم أن يتصرفوا داخل البيت وكأن هناك عيدا . ومع ذلك فقد كنت أفرح بهذا التغيير البسيط . أجد خالتى صفية التى نشأت أحبها . تضع الجوزة جانبا حين ترانى وتستقبلنى مفرودة الذراعين . تقول هى : « كل سنة وأنتم طيبين » . وأتذكر أمى فلا أجسر أن أرد عليها بالمثل . أقول لها متمتما : وحسان طيب ، وأتقدم منه فأحمله وأقبله فتسألنى بلهفة حسان كبر ، أتراه كبر ؟ فأقول بسم الله ماشاء الله . حسان كبر كثيرا . أصبح رجلا . تمدّ يدها وتأخذه منى وتقول وهى تضمه وتقبله ياليت متى أراه رجلا مثلك ؟ لو أغمض عينى وأفتحها فأراه رجلا .. أقول لها ربنا يعطيك العمر يا خالة صفية . فترد بحرارة: ربنا يسمع منك . أريد العمر يا ابن أختى حتّى يرتاح أبوه . ثم تقوم وهى تحمل حسان ، تتجه إلى دولاب زجاجى فى الغرفة . تفتحه بمفتاح صغير فى جيبها . فى ذلك الدولاب صندوق مطعّم بالصدف ، وعلبة القطيفة الحمراء التى تضم نيشان البك ، وكان النيشان لا معا دائما لأن خالتى صفية كانت تجلوه كل يوم . تفتح خالتى صفية الصندوق وتخرج منه جنيها جديدا تعطيه لى وهى تقول ببساطة : البك بعث لك هذه العيدية . أتمنع بشدة كما علمنى أبى وأمى ، ولكن صفية تدفع الجنيه فى صدرى وهى تقول « خذه ، وحياتى عندك لا تغضب البك ».

. فأخــذه بشيء من الفرحة وشيء من الخجــل لأن صفية لم تعــد قريبة منى ولا واحدة من أسرتى كما كانت من قــبل ، ثم انشغل عن ذلك بمتابعة حوار يتكرر دائما بين صفية وحسان . تشير قبل أن تغلق الدولاب الزجاجى إلى النيشــان وتقــول له « أنظر يا حســان . أبوك ملك .. أبوك ماذا.؟ » فيقول حســان « أبويا ملك » . ربما مد يده إلى النيشان فتبعدها برفق . يقول لها أريد أن ألعب بالملك . فتــقول صفية ضاحكة ســتلعب بالملك حين تستحق الملك . عندما تكبر وتســتحق الملك . يبكى حســان فتلاعبه صــفية لكى تشغله .

وكنت أشعر بخوف على الصغير حين أراها تلاعبه ، وكان هو أيضا يشعر بالخوف. كانت تدغدغه بسرعة وعصبية وهى تصدر أصواتا متلاحقة « دودو .. دو دو دو .. ابن البك بك . حسان البك بك . لما « جالوا انه ولد .. أتشد ظهرى واستند .. دودو .. دودودو .. دو » فى البدء يضحك حسان من الدغدغة ثم يصرخ « لا يا امه .. لا يا امه » وهو يضحك ضحكه الإجبارى تقطعه صرخات البكاء ، ولكن صفية تكون قد تعبت من اللف والدوران ، من تلك الهدهدة السريعة وقد أصبح نفسها متقطعا من الجوزة التى أدمنتها ، فتنادى واحدة من الخدم تعطيها حسان الذى يبدو متلهفا إلى الابتعاد عن أمه ، وتجلس هى على الأرض المكسوة بالسجاد ، تسند ظهرها إلى الحائط وقبل أن تكف عن اللهاث تكون قد بدأت تفتش فى الموقد الصغير عن جمرات مشتعلة وسط الرماد وتكون قد أمسكت الجوزة . أرى عينيها تلمعان بتلك الخضرة المذهبة وهى تمسك الجمرة بالماشة وتنفخها قبل أن تضعها على الحجر . تنسانى قليلا وهى تسحب الأنفاس وقد تضرج

وجهها كله ، والكريات الصغيرة تخرج من أنفها سريعة ومتلاحقة وكذلك سعلاتها . تفتح عينيها بعد قليل وتتطلع إلىّ بشيء من الشرود وهى تسألنى : ألن تبقى لكى تتغدى مع خالتك ؟. ولكن أمى تكون قد نبهت علىّ ألا أتأخر . فهناك علب أخرى لابد أن أحملها ، وتكون النظرة الثابتة قد رجعت إلى عينى صفية الملونتين ..

فما أقصر اللحظات التى كانت الخالة صفية ترجع فيها خالتى صفية .

الجزء الثالث

المطـــاريد

كنت فى السنة الثانية الثـانوية وكنا نقتـرب من الامتـحـان عنـدما لاحظت أن أبى بدأ فى الفتـرة الأخيرة يكثـر من التردد على الدير دون أن يصـحبنى معـه.. وذات مساء دخل علىّ وأنا أذاكر وقال بوجه متجهم : أترك مافى يدك وتعال معى .

تبعت أبى إلى غرفته فى شىء من الحيرة وأنا أحاول أن أخمن مـاهو الشىء المهم الذى يجعله يفعل ذلك وهو الذى يطاردنى فى كل لحظة لكى أذاكر . واستبعدت أن يكون الموضوع هو زواج « ورد الشام » . كان أحد الأقرباء من الشبان يكثر من التردد على أبى فى الفترة الأخيرة وأسرّت إلىّ أمى أنها تدعو الله أن يتقدم لورد الشام لكى تنفك عقدة بقية البنات إذا ما تزوجت كبراهن . ولكننى قلت فى بالى أنه لا يمكن أن يقطع مذاكرتى وأن يحمل وجهه الهم لهذا السبب .

وحين دخلنا غرفة أبى أغلق الباب بالمفتاح وجلس على سجادة الصلاة وأشار إليّ أن أجلس قبالته. أخذ يحرك مسبحته فى يده صامتا لفترة وهو يعتصر جبينه بيده ، ثم حزم أمره وكورّ المسبحة فى يده وهو يقول لى فى همس : أريد رأيك ..

ظللت صامتا فى إنتظار أن يتكلم فيقال بعد فترة وهو يزداد أقترابا منىّ بينما يزاد صوته خفوتا :

سيفرجون عن حربى ...

هتفت متهللاً : حرب ...

ولكن قبل أن أكمل الاسم كان قد مد يده وسد فمى وقال : ولا كلمة ..

فهمت وسكت فقال لى : ما رأيك ؟.

فكرت قليلا ثم قلت مخافتة من صوتى مثله : مازال الوقت طويلا حتى يكبر حسان وساعتها يفرجها ربنا ...

قال أبى وهو يتنهد : هذا إذا صبرت صفية حتى يكبر حسان . أخشى ألا تصبر .. يكاد يكون عندى يقين بأنها لن تصبر .

قلت وقد واتتنى فكرة : ماذا لو زوجناه ورد الشام ؟..

كنت أعرف أن عدم زواج ورد الشام وبالتالى بقية البنات يحز فى نفس أبى ، مثلما يحز فى نفس أمى وربما أكثر . كان يخشى أن يكون سبب انصراف الخطّاب عنها وقد اقتربت من العشرين ، وعن أخواتها ، هو إصراره على تعليمهن . وكانت ورد الشام هى الوحيدة من لداتها فى القرية التى حصلت على الأعدادية ، والوحيدة أيضا من بينهن التى لم تتزوج حتى هذه السن . ومع أننا لم نكن نتكلم فى هذا الموضوع ، فقد كنت أشعر أنه يؤنب نفسه أحيانا لخروجه على عادات القرية وأنه يخشى أن يكون قد ضيع مستقبل بناته . وهكذا أعتقدت أن فكرتى تضرب عصفورين بحجر . غير أن أبى قال وهو يدارى

ابتسامته : فتح الله عليك. فترددت في الكلام وقد أنتابني الخجل . كنت أعرف أنه يقول هذه العبارة إذا ما أعتبر أني شطحت بعيدا . ولما ظل صامتا فى انتظار أن أتكلم قلت بشىء من عدم الاقتناع : فكرت فى أن صفية تحب ورد الشام كأختها ، وستفكر مرتين قبل أن تقتل زوج أختها .

فقال أبى متنهدا فى يأس وهو يلوح بيديه : وأنا الذى ظننتك عاقلا ...

ثم مال وقال وهو يشير إلى صدره : إعلم أن صفية لن تتردد فى قتلى ، أنا الذى ربيتها والذى تعتبرنى أباها، إذا ما وقفت بينها وبين ثأرها...

قلت : إذن يبقى فى مصر ...

- ومن يرعاه هناك ؟.. ومن يضمن ألا تعرف مكانه ؟ رجال البك ومعارفه فى كل مكان فى مصر ..

ثم انحنى أبى وقال فى حزن : حربى مريض - هم يفرجون عنه قبل موعده لأنه مريض ...

لزمت الصمت وقد غلبنى أنا أيضا القهر والحزن ، ورحت أتطلع إلى أبى محاولا أن أعرف فيم يفكر . ولم يتركنى طويلا فى حيرتى ، فقال لى فى حزم وإن لم يرتفع صوته : أسمع أنا فكرت فى كل شىء . غدا فى الصباح تشدّ العربة ، سنذهب أنا وأنت إلى المحطة فى الفجر قبل أن يعرف أحد .

قلت فى دهشة : سنسافر إلى مصر ؟

فقال وهو يهز رأسه : لا . سنقابل حربى فى القطار الذى سيأتى من مصر. وسنوصله إلى الدير . كلمت الراهب جرجس ليستأذن رئيس الدير فوافق على أن يبقى هناك . يمكنه أن يعيش فى مزرعة الدير . لن تستطيع صفية أن تمسه فى حمى الدير ولن يستطيع أحد أن يمدّ عليه يده ..

قلت بشىء من التردد : الدير ؟ .. ولكن .. فمد يده أمام وجهى وقال بلهجته نفسها وكأنه لم يسمعنى : ومن هنا للصباح لا أريد أن يسمع أحد فى البيت كلمة . ستعرف البلدة كلها بعد حين ولكن لا أريد الآن كلمة ، لا أريد حتى الطير أن يسمع فى سماه فربما قتلوه قبل أن ينزل من القطار .

وهكذا خرجنا فى الفجر ، وكانت القرية قد أعتادت أن يذهب أبى إلى مصر فى قطار الفجر ولهذا لم يندهش أحد من الجيران حين سمع جلبه العربة والحصان فى ظلام الليل، واندهش القلائل الذين كانوا مسافرين فى ذلك القطار من قريتنا حين رأو أبى يقف فى المحطة على الرصيف المقابل فى انتظار القطار القادم من مصر – رأوه حين وصل القطار يسند شخصا طويلا ملثما نزل منه ثم يقوده بسرعة إلى خارج المحطة . وأمام باب المحطة بالضبط كان الحانطور يقف فركب حربى فى المقعد الخلفى ، ومن قبيل الاحتياط أنزل أبى غطاء العربة ثم قال لى : أرنا همتك. أريد أن نكون فى البلد قبل أن يرجع مخلوق من المحطة .

ربت أبى على رقبة الحصان ربتةً خفيفة وصعد إلى جوار حربى بينما جلست بمفردى فى المقعد المرتفع الأمامى وأنا أدعو الله فى سرىّ

ألا يخذلنى الحصان العجوز فى الطريق وأن يصبح كما قال أبى « حمامة » .. فهل شعر الحصان بذلك الدعاء الخفى ؟ .. هل شعر بتوترى وأنا أجلس فى العربة وأطرقع بالسوط فوق رأسه دون أن ألمسه هاتفا بصيحة النداء لكى يتحرك واللجام فى يدى ؟ .. هل كانت ضربة أبى الخفيفة السريعة على رقبته قبل أن يركب هى أيضا رسالة خفية إلى حصاننا البنىّ بألا يخذلنا فى ذلك الصباح الصعب ؟ هل أعدته لهفتنا وتوترنا فانطلق يعدو وكأنما عادت إليه فجأة كل فتوة الشباب ورعونته حتى صاح أبى من داخل العربة التى تترنح بأن ألمّ اللجام لكى لا نسقط من فوق الجسر ؟ وأشك فى أن يكون أبى قد استطاع أن يسمعنى وسط وقع الحوافر وصرير العجلات الخشبية التى خشيت أن تتحطم وأنا أصيح ردا عليه بأنى لا أكاد أسيطر على اللجام ، لا أشده ولا أرخيه بل بالكاد أتشبث به . وفيم فكر أهل قريتنا حين وصلناها وقد خرجوا من البيوت على تلك الجلبة ؟ يروننى وحيدا أقود تلك العربة المنطلقة ولا يميزون الشبحين الجالسين فى داخلها ، بعضهم يعدو ورائى ويقول لى توقف يا مجنون .. ستحطم العربة .. وتقتل دجاج الناس . الولد طار عقله وسيقتله أبوه ! سنقول لأبيك ! وفيم فكروا حين رأونى أصل فى النهاية إلى بيتنا فلا أتوقف عنده بل أشرق مبتعدا وسط الصحراء والحصان لا تخف سرعته بعد ذلك وسط طريق الرمل والحصى بل يتجنب الأحجار والحفر العميقة ويمرق بالعربة فى هذا الطريق الوعر الذى لم يطرقه من قبل وكأنه يعرف كل حفرة فيه وكل حجر إلىّ أن أوقفه أخيرا أمام بوابة الدير فينزل أبى وينزل حربى ويقول أبى ضاحكا فيما يشبه الهمس : هل كنت تريد أن تنقذ حربى أم أن تقتلنا نحن الثلاثة ؟ ثم يضيف وهو يقبض على ذراعى فى فخر :

ربى يحميك يا ولدى ـ وكنت ألهث وكان الحصان يلهث وقد رفع رقبته وأخذ منخاراه يرتجفان يلقفان الهواء بسرعة وراحت حدقتاه السوداوان تدوران بسرعة وقد اتسع بياض عينيه الكبيرتين ، وهو يميل برقبته يلتفت برأسه نحوى ويستفهم منى فقلت مبتسما « تعال يا مقدس بشاى ... هذا الحصان أيضا يستحق أن تدلله » .

وجاء المقدس بشاى بالفعل ، فتح الباب وأدخل أبى وحربى وهو يقول فى لهوجة : مرحبا بالحاج والحاج . لم ينطق باسم حربى . ونسينى وهو يغلق الباب وراءه بسرعة .

ولكننا كنا نعرف، أبى والحصان العجوز وأنا، أننا قد نجحنا وأننا قد أنقذنا حربى .

□□□

واعتنى أبى بتدبير الأمور . بنى خصا صغيرا وسط المزرعة بعيدا عن مبانى الدير وقريبا من خص المقدس بشاى ، وجعل حربى يقسم على ألا يغادر هذه المزرعة لأى سبب كان وقال له بنبرة حزينة : أعرف أن تقييد الحركة هو سجن أيضا ، ولكن ما باليد حيلة . أستوص بالصبر يا ولد والدى . تذكر ربنا وصلّ له يا حربى . إجعل الصلاة قرة عينك ينفسح أمامك هذا الخص الصغير ويتسع كأنه الأرض كلها .. ترى الجنة قبل أن يعدك الله بها ..

وكان حربى يستمع ويؤمن على ما يقوله وقد تعلم كلمة جديدة من القاهرة فكان يرد « تمام يا أفندم » ثم يستدرك ويهز رأسه ويقول : « صح يا ولد والدى .. صح كلامك .. أدع لى أن يرحمنى ربى » .

وكنت بالكاد قد منعت نفسى أن تخرج منى صرخة حين رأيت حربى بعد أن نزع عن وجهه اللثام . كان الشعر قد سقط عن معظم رأسه وأصبح خداه بقعتين زرقاوين تتفشى فيهما ندوب وجروح صغيرة متجاورة . وكانت فى عينيه نظرة منطفئة . كان وجهه كله منطفئا .

وفى طريق العودة من الدير لم أفلح فى أن أعرف من أبى شيئا عن مرض حربى - ظل يتنهد وهو يقول : أدع له بالشفاء .. ربنا رحمته واسعة .

وعلى عكس ما توقعت ، لم تعترض البلد على التدبير الذى استقر عليه أبى . كان هناك اثنان أو ثلاثة لم يعجبهم هذا التصرف وعاتبوه صراحة بعد صلاة الجمعة فى المسجد . استمع اليهم صامتا ، ثم قال فى بطء أمام الجميع : أو لم يرسل الحبيب عليه الصلاة والسلام أول المسلمين إلى النجاشى حرصا على حياتهم ؟ أنا أتأسى بالحبيب المصطفى .

أمنّ الجميع على قوله ، وبعدها لم يفتح أحد فمه بكلمة ، كان حربى محبوبا فى البلد وكثر زواره بعد ذلك فى المزرعة .

أما خالتى صفية فلم تطأ قدمها بيتنا بعد ذلك اليوم . لم يذهب أبى إليها ولكن أمى زارتها مرة واحدة بأمر منه ثم عادت مكفهرة الوجه وقالت بمجرد أن دخلت من عتبة البيت . وكانت أول مرة أسمعها ترفع صوتها عليه : فضحتنى يا حاج . لم يكن ينقص إلا أن تطردنى صفية. أنت تعرف النار التى تعيش فيها ، فلم جعلتنى أذهب إليها ؟ نحرمها من ثأرها ثم نذهب لنشمت فيها ؟ هذا حرام والله !

ولكن أبى لوح بيده وقال : فعلت ما يرضى ربى. وحسبى الله ونعم الوكيل .

ولم تكن تلك أول مرة أفهم فيها أن أمي تقف في صف صفية رغم اقتناعها دائما بكل ما يقوله أبى أو يفعله ، رغم مودتها لحربى ولد والدها، رغم أنها تعرف أنه قد ظلم ظلم الحسن والحسين . شيء أعمق من ذلك كله كان يجعلها تعرف أن صفية لن ترتاح حتى تأخذ ثأرها ، ويجعلها ترى أن ذلك الثأر من حقها .

أحيانا كنت أجدها تبكى وحدها وهى تجلس مقرفصة على الأرض تهز جذعها وتقول : مسكينة ياصفية مسكينة يابنتى ، وأحيانا تلتفت نحوى وتقول كأنها تواصل كلامها لنفسها : سيظل البك على رأسك حتى يوم الدين ولن يرتاح فى نومته ..

ومع ذلك فقد انقطعت كل صلة بين أسرتنا وصفية .. لم أعد أراها ولكنى كنت أسمع أخبارها. سمعت أنها منذ وصل حربى بدأت تخرج إلى البيوت . تدور طول النهار من بيت إلى بيت. تقول هل رأيتم أن البك كان على حق ؟ هل رأيتم ؟ كان يعرف أن حربى امرأة . هاهو مثل النسوان . ها هو يختبيء من امرأة وطفل ويحتمى بالنصارى . إن كان رجلا فليخرج - مم يخاف ؟ ومن يخاف ؟ حسان شبر ونصف. هل يخاف من حسان أم أنا التى أخاف على حسان منه ؟ قولوا له أن يخرج . إسألوا هذا المرأة لم يخاف من امرأة ؟

وكانت الناس تسمع ولا تعلق . وبعد قليل فوجئنا بصفية وقد طردت الحارسين المسلحين اللذين كانا يقفان أمام بيتها . لم ينطق الرجلان بشيء عن السبب ، ولكنا سمعنا أنها أصدرت لهما أمرا بأن يذهبا إلى حربى فى الدير وأن يقتلاه - قال الرجلان : ياست صفية ان خرج من الدير قتلناه ولكنا لا نستطيع أن نقتله فى الدير . حتى المجرمون والمطاريد لا يفعلون ذلك - هذا حرام .

قيل إنها كانت تجلس على الأرض فانتفضت ورمت عليهما الموقد بجمراته المشتعلة وقالت : اذهبا يانسوان - هل تحرسني نسوان ؟ إذهبا وناما جنبه . هاتا البنادق وخذا من عندى جلبابين يا حريم ..

قيل إن الرجلين جريا ينفضان الجمر عن ثيابهما وقيل إنها ظلت تعدو وراءهما حافية القدمين حتى حملها الخدم إلى داخل البيت ، قيل إنها جنت أو كادت تجن. غير أن المزراعين الذين كانوا يؤجرون منها الأرض قالوا إنه لا يفوتها حساب مليم وان عقلها يزن قريتنا مجتمعة.

قيل وإن كنت لم أر ذلك. لم يقع بصرى عليها فى ذلك اليوم ولا بعده ، غير أنى كنت أرى حربى . ظلت أمى رغم كل شيء تعدّله الطعام الذى يحبه فأحمله له ، وظل أقرباء آخرون يزورونه ويأخذون له الطعام ، فكان خصهً مكدسا دائما بتلك (الزيارات) على قلة ما كان حربى يأكل أو يمس من الطعام . وكان جاره وشريكه فى وجباته يحثه فى معظم الوقت على أن يأكل رغم أنه كان أكثر منه زهدا . كانا يفرشان للأكل هو والمقدس بشاى تحت النخلات فيما بين خصيّهما ، ويذوقان لقيمات يغمسانها بأى شيء ثم يستغرقان فى الحديث ، وحينما كنت أنضم اليهما - كنت أخجل من أن أزيد عنهما فى الأكل ولكنى أعرف أننى سآكل حين أعود إلى البيت .

كان حديثهما فى الغالب مثل أحاديث أهل القرية فى جلسات السمر . يدور ويلف حول الجدود الذين بنوا قريتنا بعد هروبهم من تفتيش الأمراء وحول أولادهم ومافعله بهم الزمن ، وحول صعود نجم عسران الذى خلف أكبر الأسر فى بلدتنا عددا وخلفّ القلة من الأثرياء فيها . ومع أن المقدس بشاى ، مثله مثل بقية الرهبان فى الدير ، كان وافدا على قريتنا إلا أنه لازم المتنيح باخوم وسمع منه ، ثم أكمل المقدس بشاى معلوماته بكثرة اختلاطه بنا .

وكان يبادل حربى الحوار بكل ثقة رغم أنه كثيرا ما كان يقع فى أخطاء. ومن ذلك مثلا روايته عن حصول عسران على رتبة البكوية . وكنا نحن أحفاده نسمع أنه أخذ البكوية بعد زيارة الخديوى للأقصر وبعد أن قدم له بعض الخدمات ، ولكن المقدس بشاى يقول إنه حاز الرتبة لأنه عزم الأسطول المصرى على وليمة كبيرة . كان حربى يضحك ويسأله : كيف عزم عسران الأسطول يا مجدس ؟ هل كان عندنا بحر فى قريتنا ثم نشف ؟ فيؤكد أنه سمع ذلك من المتنيح باخوم الذى شهد الواقعة بنفسه ، وقال إن الموائد التى مدها عسران للأسطول كانت تمتد من القرية حتى الدير ، وأن الأسطول كان يلبس القصب وان عسران ذبح كل ماليه من مواش لاطعامه وجاء من الأقصر بطباخين وسفرجية : من « الونتر بالاس » نفسه ، وكانوا أيضا يلبسون القصب ، ولما سمع بذلك الملك عباس أفندينا أرسل إلى عسران بكويه ذهبية كبيرة . ومن ذهب هذه البكوية اشترى عسران الأراضى الكثيرة التى ورثها أولاده .

فإذا وجد المقدس بشاى أن حربى مازال يضحك رغم ذلك وأننى أدارى الابتسام ، مال برأسه وزرّ عينيه وقال بخجله المألوف « يعنى ياولدى الأسطول لا يعرف أن يأتى إلا بالبحر ؟ ألا يمكن أن يركبوا القطار ؟ أليسوا ناسا مثل الناس حتى ولو لبسوا القصب ؟.

فيقول حربى وقد خجل بدوره من نفسه ومن ضحكاته : معك حق يا مجدس .

غير أن أحاديث غير هذه هى التى كانت تدور بين حربى وبشاى عندما يبقيان وحدهما . أحاديث معظمها عن الزرع وعما يجود فى

الأرض وما لا يجود وعن أنسب الشهور لزرع كذا وأنسب الأوقات لرى كيت. ولم يكن فى هذه الأحاديث مزاح ، بل كانا يختلفان أحيانا ويعلو صوتهما حتى ليظن الغريب أنهما على وشك الشجار .

وذات مرة رأيت حربى وقد خلع جلبابه وأمسك فأسا حين كان بشاى يعزق الأرض لكى يعزق معه . ولما قلت ذلك أمام أبى بطريقة عابرة تغيرّ لون وجهه واستبد به الغضب. قام من فوره وقال آمرا : تعال معى ، أدركت سرٌ غضبه وندمت على ما قلت ولكن الأوان كان قد فات. ركب أبى حماره الأبيض وركبت وراءه حمارا ، وكان طول الطريق ينخس الحمار ويسبهّ على غير عادته .

ولم يكن المقدس بشاى موجودا لحسن الحظ عندما وصلنا وعندما انفجر أبى فى حربى بمجرد أن رآه : منذ متى يا حربى تعمل أجيرا فى الأرض تعزق وتحرث ؟ حاول حربى أن يهدىء أبى وهو ينظر الىّ مؤنبا ومعاتبا وقال : لم أكن أعمل يا حاج كنت أسلى نفسى . فقال أبى يا سلام ؟.. وهل كنت تسلى نفسك فيما مضى بأن تعزق أرضك ؟ هل سمعت من قبل عن واحد من أعيان البلد يعزق الأرض مثل الأجراء ؟ . أتريد يا حربى أن تفضحنى فى شيبتى ؟ ماذا تقول صفية لو سمعت أنك تمسك بالفأس وتشتغل فى أرض الدير ؟ تقول إنهم أجرّوك ؟ تجعلنى وتجعلك مسخرة القرية . هل ضاع مخك يا حربى ؟

فأحنى حربى رأسه وقال : سامحنى ياولد والدى . مرة وفاتت ولن أرجع لها .

كان حربى مثل أبى من الأعيان . أقصى ما يجوز له أن يفعله

هو أن يحرس أرضه بالليل وبندقيته في يده أو أن يقف ليشرف على المزارعين والأجراء ، يعطيهم النصح ويوجههم لكنه لا يمدّ يده في الزرع . ومع ذلك فلم يكن أحد من أعيان قريتنا ثريا بحق ، ولا كان أحدهم يملك ما يفيض على حاجته . بأستثناء البك القنصل بالطبع رحمه الله . صحيح أن من عيوب قريتنا (الفشخرة) وقد تجد في بعض جلسات المزاح من تدور رأسه بينما تدور الجوزة بين الأيادى ، أو من يكتسب الجرأة عندما يشرب في الحجرة الخلفية من بقالة عم رزق كأسين من عرق البلح أو (البلح) كما يسمى في قريتنا ، وساعتها يتحدث عن أنه نادم لأنه أنفق في زيارته الأخيرة لمصر عدة مئات من الجنيهات بسبب سهره كل ليلة مع بعض أصدقائه من القاهريين ومنهم ضباط من مجلس الثورة . وقد تجد من يقول لك إن لديه في ذمة البك القنصل الشيء الفلانى ولكنه احتسبه عند الله لانه لا يريد أن يجدد أحزان صفية . وقد يصل الأمر حين تتقدم السهرة بأن يتظاهر أحدهم بالحزن وهو يضع رأسه بين يديه قائلا إنه لا يعرف من أين يأتى بالفدية للمطاريد لأنهم أرسلوا له بالذات يطلبون مبلغ كذا . ولكن الجميع كانوا يعرفون أن تلك محض أوهام تطير مع الدخان ، وأن على كل واحد أن يفوت لأخيه ، لأنه إن لم يكن قد قال اليوم ما يرفع من قدره أمام سامعيه فسيقوله غدا .

لهذا كانت دهشتنا عظيمة حين حل بقريتنا الفقيرة ذات يوم جيش من الرجال ذوى الجلابيب السود والعمائم البيضاء وفوق أكتافهم الرشاشات والبنادق . وكانت دهشتنا أعظم حين وجدناهم يعبرون قريتنا ثم يتركونها متوجهين نحو الدير .

رأيتهم . وكانوا حوالى عشرين رجلا ، قطعوا طرق قريتنا وأزقتها دون أن يلتفتوا يمينا ولا يسارا ودون أن يكلموا أحدا ،



يتقدمهم عملاق مهيب ، لا يضع على كتفه بندقية بل يمسك بيده عصا طويلة من منتصفها يدب بها الأرض أمامه على امتداد يده، وقد انسدل جلبابه عليه ، ضيقا عند صدره وواسعا عند قدميه كشراع أسود يقود تلك القافلة المنذرة بالشر فوق الرمال الصفراء . لم أجسر على متابعتهم ، أما من لم يشلهم الرعب منا ومضوا يتلصصون من بعيد وراء هؤلاء المطاريد الذين لم يهبطوا قريتنا قط من قبل فقد رأوهم يقفون بعيدا عن باب الدير، ورأوا قائدهم يتقدم نحو الباب ويطرقه بعصاه .

قال المقدس بشاى إنه لم يعرف رعبا فى حياته كالذى عرفه حين فتح الباب فرأى ذك الوجه وعلى البعد منه تلك الوجوه . ظل واقفا فى مكانه مشلولا والرجل يتكلم ولكنه لا يسمعه . ولم يفهم شيئا أيضا حين رأى الرجل يصرخ فى رجاله أن يرموا بنادقهم وأن يجلسوا على الرمل . كل مافهمه أن الرجل يريد حربي. يقول المقدس بشاى إنه فى تلك اللحظة طرأ على ذهنه عصر الشهداء فجاءته الشجاعة وقال « لا نسلمه . لا نسلم ضيفنا » وهم بأن يغلق الباب فاستشاط العملاق غضبا ومد يده ليبقى الباب الموارب مفتوحا. يقول المقدس بشاى : صدقنى ياولدى لم تكن هذه ذراعا بل قضيبا من حديد ، أزاحت الباب وأزاحتنى فأوشكت أن أسقط على الأرض وهو يصرخ فى وجهى « إفهم » ! وشاء الرب لحظتها أن يأتى الراهب جرجس ففهم ، ولكنه طلب من الرجل أن يلف حول الدير وأن يأتى دون سلاح ويترك رجاله جالسين أمام بوابة الدير. وقيل إن حربى حين شاهد العملاق يتقدم من خصه إندفع نحوه مفرود الذراعين وهو يهتف « فارس » ! فقال العملاق بصوت أجش وهو يعانقه « خادمك يا سيد الرجال » .

ولكن تلك كانت هى المرة الوحيدة التى يدخل فيها واحد من

المطاريد إلى حمى الدير . لم يقبل رئيس الدير أن يتكرر هذا المشهد .

وكنا نعرف جزءا من قصة فارس . نعرف أنه كبير المطاريد فى محافظتنا وأن اسمه وحده يلقى الرعب فى القلوب . وكان « عطيتو » كبيرهم من قبله قد فجر . لم يكتف عطيتو بفرض الفدية على القادرين وعلى المحتاجين على السواء ، بل استولى لنفسه على قطعة أرض كبيرة فى سفح الجبال شمال المحافظة وزرعها بالحشيش والأفيون وراح يتاجر . ثم إنه أكثر من القتل . وكان يقطع الطريق ويقتل بسبب وبدون سبب . ولما اعتدى على بعض الناس الذين لهم أقارب من المهمين فى القاهرة تحركت الحكومة فأرسلت الجيش الذى حاصر عطيتو فى الجبل ودارت الحرب سجالا بين الطرفين. ظلت الصحف تكتب عدة أسابيع عن « كماشة » تطوق المجرم وعن تضييق الخناق عليه . ولكن عطيتو لم يسقط فى أى كماشة ، بل حوصر فى عز الليل فى بيت امرأة بطالة عند سفح الجبل كان يتردد عليها ولم يتوقف عن زيارتها بعد تضييق الخناق .

ونشرت الصحف صورته فى اليوم التالى وقد اخترق الرصاص صدره فصار كالغربال بينما كان فمه مفتوحا ومعوجا . واستمرت الكتابة طويلا عن تطهير الجبل . ثم دكت الحكومة معاقل المطاريد بالطائرات وأحرقت زراعات الأفيون والحشيش .

ولما عاد المطاريد إلى الظهور بعد شهور كان على رأسهم فارس. قيل إن رهبتهم كانت قد ضاعت بعد مصرع عطيتو ، حتى أن واحدا من بقالى الجملة فى عاصمة المحافظة قال علنا إنه لن يدفع الفدية وليشرب فارس من البحر . ذهب فارس اليه بمفرده فى عز الظهر ، ولما رآه التاجر مقبلا نحوه كالداهية فرد ذراعيه مرحبا وهو يقول أهلا

بمعلمنا وتاج رأسنا . ولكن فارس لم يرد .. دخل المحل وأمسك الرجل من شعره ثم دغ رأسه على العارضة الرخامية كما يدغ فحل البصل . قيل هي خبطة واحدة تركه بعدها ملقى فوق الرخام متهدل الذراعين يشبر الدم من رأسه علي الأرض ، ثم جلس على مقهى قريب وراح يدخن الشيشة فى هدوء ساعة أو نحوها دون أن يجرؤ أحد على دخول المحل ليعرف إن كان الرجل حيا أو ميتا . بعدها عرف الناس قدر فارس . ومع ذلك فقد كان يقال عنه إنه لم يفرض فدية على فقير أو على امرأة وإنه كان يبسط حمايته على جيرانه فى سفح الجبل دون مقابل .

وكان حربى قد عرف فارس فى السجن قبل تلك الأحداث كلها. كانا زميلين في ليمان طره ينفذان الأشغال الشاقة . يخرجان مع الفجر إلي الجبل لتكسير الأحجار ولكل منهما حصة لابد أن يفى بها قبل آخر النهار وقبل العودة إلي الزنازين . ولم يكن الحارس المكلف بهما يقبل أى أعذار . يجلد من يقصر ويأمر بحرمانه من الطعام ويوقفه عاريا فى الشمس بالساعات . وبالكاد كان كل سجين يتمكن من أن يقدم فى نهاية اليوم حصته من الأحجار . ولم تكن هناك صعوبة فى أن يقدم فارس حصته . كانت يده كما قال بشاى قبضة من حديد ، ولم يشك فى حياته من وعكة فى جسده. ألم به المرض مرة فى عينيه وحدهما . ذات صباح أحتقنتا وأرمدتا وأعطاه طبيب السجن قطره ومرهما ولكن رفض أن يعفيه من الخروج إلى الجبل .

وكان فارس قد اعتاد مثل الرجال ألا يشكو . لم يكن يكاد يرى ولكنه ذهب إلى الجبل .

ورآه حربى يتخبط بمعوله ، يضرب مرة فى الأحجار ومرة فى

الهواء ، يخبط ضربات عشوائية تهيل ترابا ولا تكسر حجرا ، فذهب اليه وقال له : إجلس يا ابن العم ، حصتك وحصتي عندى إلى أن يأخذ الله بيدك . وفى نهاية الأسبوع كان حربى الذى ظل يعطى فى اليوم حصتين من الأحجار لا يستطيع الوقوف علي قدميه ، فأحتضنه فارس وقال له : يا ابن العم ، إن احتجت يوما لهاتين العينين قلعتهما لك .

وهكذا اعتاد المطاريد أن يأتوا إلى قريتنا دون موعد - أحيانا مرة كل شهر وأحيانا فى كل أسبوع مرة . إقترح فارس فى أول الأمر أن يأخذ صديقه معه وهو كفيل بحمايته ولم يقبل حربى هذه الفكرة واعتذر اعتذاراً مهذبا . ثم اقترح كبير المطاريد على أبى أن يذهب بنفسه إلى « الست صفية » لكى يعرض عليها الدية التى تطلبها ، ولكن أبى نجح فى إثنائه عن عزمه ، وقال له ألا فائدة من ذلك والأفضل ألا يعرض نفسه للرفض وربما لما هو أكثر منه ، وكان أبى الذى تكهن بردود فعل فارس على تصرفات صفية العصبية ، يحرص على حمايتها كحرصه على حربى .

كان يوم زيارة المطاريد هو اليوم الوحيد الذى يخرج فيه حربى من الدير . أصر الراهب مترى رئيس الدير على أن يبقوا خارج الأسوار ، وعنف بشاى ، والراهب جرجس لسماحهما بدخول فارس إلى خص حربى أول مرة . قال فى حسم : لا يدخل إلى حمى الدير خارج على القانون . ولم يجادل فارس الذى لم يشأ أن يعرض حربى لأية مشكلة . ولكنه حرص فى كل مرة على أن يحرس صديقه عندما يخرج من حمى الدير : كان المطاريد يقفون حراسا ببنادقهم على مشارف الدير فوق الجبل ، وكان فارس يضع يده على كتفه بمجرد أن يخرج مستعدا لان يحميه بجسمه كله من أى غدر ، ثم يفترشان الرمل وتتحلق من حولهما دائرة من رجال فارس .

وكان فارس ورجاله يتصرفون في تلك الزيارة مثل مشايخ عرب يعرفون الأصول . لا يصلون وأيديهم فارغة . بل يحملون معهم « زيارة » من الفاكهة والفطائر لحربي الذي كان خصه دائما مكدسا بزيارات أقاربه من أهل البلد وكان يوزعها على الرهبان . وكان المطاريد يبدون الاحترام لأبي فيقفون جميعا ، وعلى رأسهم فارس إذا ما وصل وهم هناك ، ثم يخفضون أصواتهم عندما يتكلمون ولا يغلطون في الكلام . وكان هناك بعض المسيحيين من بين رجال فارس فكان هؤلاء يدسون نقودهم في يد المقدس بشاي ويطلبون منه أن يضعها في صندوق الدير وأن يوقد لهم شموعا في كنيسته .

وكان بشاي الوحيد الذي ينضم إلى حربي والمطاريد في يوم الزيارة. إعتاد أن يحمل إليهم الشاي من داخل الدير وكلوبا مضاء إذا ماليّل الليل وهم جالسون على الرمل خارج الأسوار .

وسرعان ما ألفه المطاريد مثلما كان سكان البلد يألفونه . فأخذوا يمزحون معه ويطلبون منه دون كلفة أن يعد لهم دورا جديدا من الشاي ويستجيب هو دون تذمر . واعتاد بشاي أن يشترك معهم في أحاديث السمر ، غير أن واحدا من المطاريد ، اسمه حنين ، كان يسرف في العبث معه. اذ يتظاهر بالجد الشديد ويسأل المقدس بشاي عن أسرار الدير والرهبنة قائلا إنه يفكر هو أيضا أن يترهب . وكان المعلم فارس يرده أكثر من مرة في شيء من الغضب فيقول حنين متكلفا البراءة : أنت تكره لي الخير يا معلم ؟ يمكن أقدس وأصبح مثل هذا الرجل الطيب . فيقول بشاي وهو يضحك ضحكاته العالية : لا تقدس ولا تترهب يا حنين.. ولكن أترك صحبة السوء وأترك السكة البطالة لكي تمشي في سكة مخلصنا .

ويقول حنين بلهفة شديدة وهو يضع يده على صدره : رجلى على رجلك . خدنى معك وأنا أمشى فيها .. ولا يغضب المعلم فارس من المقدس بشاى حين يتكلم عن السكة البطالة ، بل يضحك عاليا بدوره وهو يقول : ياليتك تأخذه معك حقا يا مجدس وتريحنا منه . ليس وراءه غير كثرة الكلام ووجع الدماغ ..

وإذا ما واصل حنين العبث بعد ذلك أظهر المعلم فارس العين الحمراء فيبتر حنين حديثه ويكاد يتلاشى بعيدا عن نظرته الغاضبة .

وأحيانا حينما كانت السهرة تمتد حتى الليل وتخرج الكلوبات لتنير الجبل كان المعلم فارس يطلب من حربى أن يغنى ، قال لنا إن حربى عندما كان يغنى فى السجن كان الصمت يشمل الزنازين والحراس الواقفين خارجها . وكان حربى يستجيب له ، ونحن جلوس على الرمل .

يبدأ غناءه خافتا مطرقا رأسه ثم شيئا فشيئا يرتفع صوته ويردد الجبل غناءه الحزين فى الخلاء الواسع .

وكان يرتجل أيامها دائما لليل. لليل الطويل . الليل الذى تنشب نجومه جذورها فى السماء . لسلاسل الفضة التى تقيد الظلمة فى السماء فلا يتحرك النجم ولا يتحول الليل ، وساعتها كانت تصعد من صدور فارس والرجال آهات ملتاعة . آهات تحمل أشجانهم وأحزانهم المنسية. وكانت الدموع تنزل من عينى وأنا أفكر فى حربى القديم . حربى الذى لم يبق منه شيء غير ذلك الصوت الجميل وارتجالاته التى صارت كلها للحزن .



تلك الليالى الخافتة النور فى الجبل وصوت حربى وحده يضم حلقتنا المهوشة المتناثرة فوق الرمل . لكم أذكرها !

غير أن شيئا كما يقول أهلنا لا يبقى على حاله .

وهكذا فانى أذكر أيضا ذلك اليوم الذى بدأت فيه متاعبنا مع المطاريد ..

فذات صباح جاءنا فى البيت ضابط من الأقصر وهو شىء لم يحدث من قبل . كان ذلك بعد نكسة ١٩٦٧ بقليل وقد خيم الحزن على قريتنا مثل كل مكان آخر، وكنا قد رأينا النكسة فى البلد بأعيننا حين حلقت فوق رؤوسنا الطائرات ذات النجمة الشبيهة برءوس الخناجر المتقاطعة . رأيناها تنقض على المطار السرى القريب فصوتت النساء حين تطايرت أجنحة طائراتنا الرابضة مشتعلة فى الهواء ووقفنا نحن واجمين لا نجد حتى كلمة ننطقها . واعتقد أبى أن لزيارة الضابط علاقة بالتبرع للمجهود الحربى فأجلسناه فى الديوان وبالغنا فى الترحيب به . ولكنه ظل صامتا فتوجسنا. ولما لاحظ أبى أن الضابط يجلس محرجا هو الآخر بعد أن شرب الشاى وقد ثبت نظره على البندقيتين المعلقتين علي الحائط ، قال بلهجة عابرة : هما مرخصتان . نحن فى الجبل تقريبا كما تعلم ، وكذلك لابد من حراسة الزرع .

فقال الضابط وكأنه يدفع عن نفسه تهمه : أعرف يا حاج . معاذ الله أن نشك فيك . أنت بركتنا كلنا . غير أنه بعد أن قالها عاد إلى الصمت ، وعدنا إلى التوجس . إذ نادرا ما كانت زيارة الحكومة تنبىء بأى خير.

وبعد أن طال الصمت استطاع الضابط أن يختار كلماته ليطلب مايريد . قال بعد أن تنحنح واعتدل فى جلسته على المقعد : أنت تعرف ياحاج أن المطاريد يأتون هنا .

قال أبى ضاحكا وهو يرفع يديه : معاذ الله ياولدى أن أكون قد طلبتهم . إذا أرادت الحكومة أن ترى شغلها فلن أتدخل .

قال الضابط فى حيرة : ترى شغلها كيف ياحاج ؟

رد أبى : أقصد إن أردتم أن تقبضوا عليهم عندما يأتون ..

وكنت أفهم أن أبى قد قال ذلك ليخلى ضميره ، فهو أيضا لا يوافق على أن يسلم ضيوفا ، ويعرف الحقيقة مثلما يعرفها الضابط الذى هتف فى دهشة : قلت نقبض عليهم ياحاج ؟ كيف ؟ أنت تعرف . أن لديهم رشاشات وبنادق آلية ، ومايوجد من السلاح مع اثنين أو ثلاثة منهم أكثر مما فى المركز كله ..

تنهد أبى وقال وهو يهز رأسه .. وإذن فما الذى أستطيعه أنا يا حضرة الضابط ؟ إذا كانت الحكومة تقول ذلك فماذا أفعل أنا لهم ؟

قال الضباط : لا تفعل شيئا..

ثم تطلع نحوى محرجا بعض الشيء وقال لأبى : هل يمكن أن نتكلم على انفراد ؟..

فقمت من تلقاء نفسى .

ولم يستغرق الأمر طويلا . رأيت أبى منفرج الأسارير وهو يودع الضابط حتى مدخل القرية حيث كانت تنتظره سيارته . ووجدت ابتسامة خفيفة على شفتيه وأنا أقف بانتظاره عند الديوان ، ولما اقترب

منى انفجر بضحكة عاليه لم يستطع أن يكتمها وهو يضع يده على كتفى قائلا : والله وأبوك صار السفير !

لم يزد على ذلك شيئا ولكنى عرفت كل شىء عندما جاء المطاريد فى أول زيارة لهم بعدها .. كنا كالعادة نجلس على الرمل خارج أسوار الدير : حربى وفارس مع بعض رجاله وأبى وأنا ، ولم يكن المقدس بشاى معنا فى ذلك الوقت . كان المطاريد قد أكلوا وشربوا الشاى ، وظلت (ركية) النار مع ذلك وفوقها البراد تطقطق وتطلق بين حين وآخر شرارات متتابعة ، وظل ذلك هو الصوت الوحيد لفترة .

بدأ الغروب وظهرت فى السماء نجمتان أو ثلاث وأوشك المطاريد كعادتهم على الإنصراف ليأخذوا قطار الساعة الثامنة . كان الإجهاد واضحا على حربى ولم يكن يبدو أن السهرة ستمتد أو أنها ستكون ليلة غناء .

قطع أبى الصمت وقال بلهجة عابرة : قل لى يا معلم فارس .. انتم تأتون إلى الأقصر بالقطار أو فى عربات ؟

تطلع فارس إلى أبى فى شىء من الدهشة وقال : أنت تعرف ياحاج .. إن وجدنا العربات أخذناها ولكنها ليست موجودة فى كل وقت ثم ضحك وهو يقول : نحن كما تري عددنا كبير بسم الله ماشاء الله ، ولهذا غالبا ما نأخذ القطار .

قال أبى بلهجته نفسها ودون أن ينظر إلى فارس : يعنى صعب تدبير العربات يا معلم ؟

فرد فارس : لا يمكن تدبيرها فى كل وقت .

وقال حربى لأبى : سؤالك وراءه شىء يا ولد والدى . ما الحكاية ؟ فقال أبى متظاهرا بعدم الاكتراث وهو يلوح بيده : أبدا .. يعنى جماعة المركز . انت تعرف حالة البلد هذه الأيام بعد الحرب . يعنى اذا لم تمروا جماعة مع بعضكم فى شوارع الأقصر هذه الأيام ، فربما يكون هذا أفضل .

فهم المعلم فارس فوضع يديه الاثنتين فوق رأسه وقال : على عينى وراسى ياحاج . انت تأمر . من أجل خاطرك وخاطر حربى كل ما يريده المركز .

فقال حنين محتجا : يا سلام يا معلم ؟ وغدا يطلبون أن نسلم أنفسنا ! مادخلهم ان ركبنا القطار أو .. قاطعة أبى فى شىء من الانفعال : مامعنى كلامك ياحنين ؟ .. الجماعة يعرفون لماذا تأتون إلى هنا ويعرفون أنكم تراعون الأصول عندما تأتون وعندما ترجعون بالسلامة . هل تعرضوا لكم من قبل ؟.. هذا رجاء . من أجل خاطرى ومن أجل خاطر حربى .

فعاد حنين يقول : ولكن ما دخل المركز ياحاج إن نحن ..

صرخ فارس : أخرس يا حنين . ثم التفت نحو أبى وهو يقول مخافتا من صوته : قلت لك خاطرك فوق رأسى ياحاج .. ثم أخذ فارس يحك ذقنه وبدا عليه التفكير وقال وهو يميل بجذعه نحو أبى : والله ذكرتنى ياحاج . أنا دمى يغلى من يوم أولاد الحرام هؤلاء ما أخذوا سيناء . قل للمأمور ان المعلم فارس مستعد أن يأخذ رجاله إلى سيناء ليحارب اليهود إلى أن يخرجوا من البلد .

قال أبى فى حيرة : ماذا قلت يا معلم ؟

فـرد فـارس بكل جـد : قل لحضـرة المأمـور إن المعـلم فـارس يقـول لك إنه ورجاله ومطـــاريد خط الصـعيد كله مستعدون للذهاب إلى سيناء ليطردوا منهـا اليـهـود. لا نكون رجالا ان بقـينا هنا وأولاد الحرام هؤلاء هناك .

لزم أبى الصـمت وقـال حـربى بصـوت حزين : ليتنى كانت قد بقيت عندى قوة لأقول مثل قولك يا معلم .

فقـال فارس بحرارة : مـاهذا الكلام يا حـربى ؟ غدا ستصبح كالحصان يا رجل – هذه شدة وتزول بإذن الله .

فأخذ حربى يهز رأسه دون اقتناع ورجع الصمت ..

مال أبى نحوى فجذبنى ليقربنى منه وهمس فى أذنى وهو يغالب الضحك : ألم أقل لك ؟ أبوك أصبح سفيرا !

ثم تنهد وقال بصوت مرتفع : هيه الليل ليّل ..

كـان حنين قد وقـف وأخذ يتمشى محوما حـول المعلم فارس ثم قـال فـجـأة مندفـعـا فى حـمـاس : والله فكرتك فكرة عظيـمـة يا سـيد الرجال . ولكننا سنحتاج إلى سلاح .

فقـال فارس بهــدوء : الحـاج يقـول للمأمور والجيش يعطينـا السلاح .

قال حنين : معقول ، ولكن هذا شىء يطول .

ثم سكت فترة قبل أن يقول كأنه تذكر شيئا : على فكرة يا معلم أنا سمعت أن هذا الدير مملوء بالذهب .

وقبل أن يكمل حنين كلمته ، وقبل أن ندرك أى شىء كان طلق

نارى قد دوى وكان حنين ينبطح على الأرض وهو يصرخ وكان المعلم فارس واقفا وهو يصيح ملوحا بمسدسه : أنا اسمى فارس وأنا فارس يا كلب! فارس لا يخون يا خائن .. وكان الجميع قد هبوا واقفين وكان حربى يكبل يد فارس الممسكة بالمسدس وهو يقول محاولا أن يهدىء صديقه بصوت يقطعه اللهاث : يكفى يا فارس .. أدبته ويكفى .. وكان حنين المنبطح على بطنه يحيط رأسه بذراعيه وهو يصرخ فى ذعر : أنا فى عرضك يا معلم .. أنا كنت أمزح .. يكفى . ضيعت لى رجلى.

لم ينجح حربى وأبى فى انتزاع المسدس من يد فارس ، ولكنهما استطاعا أقناعه بالجلوس فقال وصوته يملأ الجبل : ينصرف هذا الكلب من هنا .. لا يبقى معى دقيقة بعد اليوم .

قال حربى مهدئا : أمرك يا معلم ولكن اهدأ..

لما اطمأن حنين جلس وهو يتأوه ويقول : ترمينى بالنار على نكته يا معلم ؟ .. فقال فارس بصوت جريح عاجزا عن السيطرة على نفسه : تريدنى يا حنين أن أعتدى على الرهبان الذين أوصى عليهم ربنا سبحانه وتعالى فى القرآن ؟.

ثم التفت إلى أبى مستشهدا: ألم يوص عليهم سبحانه وتعالى ياحاج ؟

فقال أبى بشىء من الحرص : الرهبان مذكورون فى القرآن الكريم يا معلم .

وقال فارس لحنين : هل سمعت ؟ هل تمتحننى يا حنين أم تخون ناسك ؟ من تحسب فارس يا حنين ؟.

وعاد الألم يملأ صوته وهو يكرر بصوت أشد خفوتا : من تحسب فارس ؟ فارس لولا الزمان ... ثم لزم الصمت فترة محنيا رأسه وقال لأبى : متى سترد علىّ ؟..

قال أبى فى حيرة : أرد على ماذا يا معلم ؟.

فقال فارس : بعد أن تكلم المأمور - أرجع لك بعد أسبوع يكون عندك رد ؟.

فكرر أبى فى ذهول : أى رد يا معلم ؟

ولكنه وقتها كان قد انصرف عن أبى والتفت نحو حنين يقول بالهدوء نفسه : إمش من هنا ياحنين .

فقال حنين متأوها وكأنه يبكى : يا معلم ، عشرة العمر كله وأنا خدامك ..

فقال فارس وهو يهز رأسه : إن بعت ناسك اليوم من أجل الذهب يا حنين ، فغدا تبيعنى بملاليم ... ثم أكمل بلهجة قاطعة : إمش يا حنين لم يعد لك عيش معى .

وانتبهنا لحظتها إلى أن المقدس بشاى كان يأتى مهرولا نحونا وإلى أن بعض الرهبان كانوا قد تجمعوا عند البوابة يطلون علينا صامتين .

قال بشاى الذى كان يحمل القطن والشاش وهو يركع على ركبته إلى جانب حنين الذى ظل يجلس ممسكا رجله : هل دخلت الرصاصة ؟..

ثم أكمل وهو يفحص ساقه : كنت أعرف أنها لم تدخل ولكنه جرح كبير مع ذلك يا حنين . دعنى أطهر جرحك .

كـان المقـدس بشـاى يتكلم بصـوت عـمـيـق ومـتـهـدج لم أسـمـعـه منه من قـبل . لم أكن أرى وجـهـه فى عـتـمـة الغـروب ولكنى استبعدت أنه يبكى .

مد حنين ساقه مستسلما بينما أخذ المقدس بشاى يطهر جرح الرصاصة التى أصابته تحت ركبته. وتأوه حنين عندما لمست صبغة اليود جرحه واستمر بشاى يجفف الدم وينظف الجرح وهو يضحك ضحكات قصيرة لا تشبه ضحكاته العالية الصافية قائلا للجريح : قلت لك يا حنين أترك هـذه السكة لم تترك هـذه السكة فانظر أين أخذتك هذه السكة ..

فصرخ حنين فى بشاى أن يعمل وهو ساكت ويكفيه ماهو فيه .

غير أن بشاى بعد أن انتهى من تضميد ساقه ربت عليه وضحك ضحكته الغريبة وهو يقول : هل تعرف دينك يا حنين ؟

قال حنين ساخرا وهو يتحسس ساقه : علمنى يامقدس .. فقال المقدس وكأنه لم يسمع : أتعلم يا حنين أن مخلصنا غسل قدم يهوذا فى ليلة العشاء الأخير ؟..

رد حنين ما بين السخرية والألم : كنت نسيت واشكر الرب أنك علمتنى ...

فانتصب بشاى واقفا ونظر للسماء متأوها بصوت عال وكأنه يحتج على كل ما فى العالم من ظلم ثم قال :

ولكنه خان بعدها يا حنين... ولكنه خان .

الجـــزء الـــرابع

النكســـة

كان مـأمورنا السيد حمزة رجل شرطة غير عادى . فهو من أسرة ثرية جدا من محافظة قريبة، وكان مشغولا معظم الوقت بادارة أملاكه أكثر من أنشغاله بالمأمورية . لهذا لم يشعر به أحد ولم يشك منه أحد . ولكن تغييرا كبيرا طرأ عليه لما وقعت النكسة . صار يقيم فى عمله طول النهار والليل ، ووضع فى ركن من مكتبه سريرا سفريا صغيرا كان يطوى فى النهار وينتصب على الحائط فى ركن من الحجرة. ثم إنه خلع (الجاكتة) التى عليها النسر والنجوم وصار يكتفى بالقميص الكاكى ويشمره إلى مافوق كوعه ، وبدأ يقوم بجولات فى المدينة ليشرف على استتباب الزمن وليجمع التبرعات للمجهود الحربى . ودعا رؤساء الأسر المتنازعة إلى مكتبه ليعقد بينهم الصلح وليتعاهدوا أمامه ، واضعين أيديهم على المصحف ، بأنهم سينبذون ما بينهم من خصومات . وكان من جملة مافعله فى تلك الأيام هذه الرسالة التى كلف الضابط بأن يحملها إلى أبى ، أن يختفى استعراض

المطاريد من شوارع المدينة حرصا على هيبة الأمن والحكومة فى هذه الظروف الصعبة .

أما أهم أعماله فى الأيام التى تلت النكسة فكان هو التدريب العسكرى . اذ فتح كل مراكز الشرطة أمام المتطوعين فتدفق معظم القادرين فى المدينة والقرى المحيطة وبدأ يشرف بنفسه على تدريبهم على دفعات . وكنت أيامها مع بقية طلبة المدرسة الثانوية من جملة المتطوعين . كنا نذهب منذ الصباح الباكر إلى قسم الشرطة فنجد السيد حمزة واقفا بهيئته العسكرية يشرف على انتظام صفوفنا ويعلمنا الضبط والربط : يؤنب بشده من ينحرف عن الصف أو من يقف فى تكاسل أو تراخ . وبعد أن يعطينا توجيهاته يكلف واحدا من الضباط أو الصولات بأن نعمل « طابور استعراض » فى الأقصر ، فكنا نسير بخطوة عسكرية ونحن ندب بأقدامنا وننشد بأصوات عالية « الله أكبر .. الله أكبر » ومصر مصر أمنا « وعلم العروبة باقى » الخ .. إلى أن تبح أصواتنا ونعفر كل شوارع المدينة بالتراب. وهكذا اشتعلت الأقصر حماسا وتأهبت للتحرير كما فعلت فى الزمن القديم ، فقد أسمانا المأمور من قبيل التفاؤل « كتيبة أحمس » طارد الهكسوس . ولكن لما بدأنا الخطوة التالية ، أى عندما بدأ السيد حمزة يفكك أمام صفوفنا المنتظمة والمتنبهه أجزاء البندقية الكلاشنكوف ويشرح لنا تلك الأجزاء استعدادا للتدريب عليها ، جاءته التعليمات مقبلة من القاهرة بأن يخف يده قليلا ويهدأ . وعليه فاننا حين ذهبنا ذات يوم فى موعد التدريب وجدنا لافتة أمام القسم عليها إعلان كبير يقول إن التدريب تأجل وإن خطابات سترسل إلى المتطوعين فى الوقت المناسب .

ولم يحن هذا الوقت قط.

وجاءت سفارة أبى بين المعلم فارس وحضرة المأمور السيد حمزة فى الفترة التى أعقبت وقف التدريبات . كان قد عاد يلبس سترته واختفى السرير السفرى من المكتب . وبعد أن شرب أبى القهوة التى طلبها له المأمور وباح بما عنده ، ضرب السيد حمزة كفا بكف وقال : لم يبق إلا هذا .. ألا تكفينا مصيبة واحدة ؟ ..

فقال أبى : لماذا يا حضرة المأمور ؟.. هذه فرصة نخلص فيها من المطاريد من الصعيد كله ..

هز المأمور رأسه وقال : سيظهر غيرهم يا حاج وانت تعرف ، والمطاريد الذين نعرفهم خير من الذين لا نعرفهم .

تنهد أبى وقال : صدقنى يا بك فى هذه الأيام إنسدت نفس الناس عن كل شىء ، حتى الإجرام . ها هو فارس الذى وقفت له محافظتنا على رجل يريد أن يترك كل شىء وأن يذهب ليحارب اليهود . دعه يذهب .. كلم الحكومة ، ربما تستفيد منه . المطاريد ملاعين فى القتال ، إن لم يخرجوا اليهود فسيتعبونهم على الأقل .

هب المأمور واقفاً وقال : مستحيل يا حاج - تريدهم أن يقولوا عنى إنى مجنون ؟ ..

قال أبى : لاسمح الله يا حضرة المأمور . الرجل يريد أن يرحل ومعه كل المطاريد فماذا فى ذلك ؟ ..

قال السيد حمزه : فيها الكثير يا حاج . شغّل دماغك . ماذا لو أخرجوا اليهود بالفعل ثم بقوا هم فى سيناء ؟ كيف نخرجهم منها ؟ وكان المأمور يقول ذلك وهو يضع سبّابته على رأسه . ولم يكن لدى أبى ردّ على ذلك فأحنى رأسه وهو يغالب الابتسام .

ثم وقف السيد حمزه وقفة إنتباه وقال مشيراً الى أبى وكأنه يصدر اليه أمراً عسكرياً : اسمع يا حاج .. قل لفارس انه يخدم المجهود الحربى فى هذه الأيام بأن يكف عن جرائمه فى المحافظة .

ولكن أبى كان لديه رد واضح هذه المرة ، إذ رفع رأسه ونظر فى عينى السيد حمزة وهو يقول بهدوء :

- لا أستطيع أن أقول له ذلك يا حضرة المأمور .

ظل المأمور صامتاً فترة وقد بدت عليه الحيرة ثم حسم الأمر وقال لأبى وهو يلوح بيده : إذن سوّحه . قل له إن الحكومة ستفكّر ......

وكان على أبى أن ينتظر الزيارة التالية لكى يسوّح فارس .

كان زعيم المطاريد يجلس إلى جوار أبى على الرمل وقد اعتمد ذقنه بيده وأرخى جفونه . ولما فهم الرسالة رفع وجهه وقال بضحكة صغيرة : مادامت الحكومة لا تريدنا .. كل حى يشوف شغله .

وطالت غيبته بعد هذه الزيارة .

وكانت لدينا هموم أخرى : فقد بدأت صحة حربى تتردىّ بسرعه . ظل أبى يجدّد الأدوية الكثيرة التى كتبها أطباء مصر ، وكثيراً ما كنت أحملها الى حربى غير أنه كان يزداد نحولاً ، وكان يزداد إنطواء وصمتاً ظل يعاف الأكل وينفر بالذات من اللحوم ولا يقربها رغم إلحاحى وإلحاح المقدس بشاى عليه بأن يأكل شيئاً إذا ما تناولنا طعامنا معاً. سألته مرة وكان يرقد أمام الخصّ على جنبه متوسدا ذراعه وقد شرد بصره :

- ماذا بك يا حربى ؟ ما هو مرضك ؟.

فقال وصوته لا يكاد يبين : أنا يا ولدى مثل النخلة العويل التى لا تطرح البلح ولا وترمى الظل . أنا انتهيت من زمن ولكن الموت يعاندنى .

وكان المقدس بشاى يقف بالقرب منا فقال متضاحكا : النخلة لا يمكن أن تكون عويلة يا حربى إلا إن كسلت جذورها عن الشرب . فلم تكسل أنت ؟ كل واشرب وانت ترعرع وترمى الظل على فدان .

قال حربى : وان كانت الجذور قد ماتت يامقدس ؟

استتند بشا ى على فأسه وحول رأسه بعيدا عنا وهو يقول : لا تموت الجذور الا بمشيئة الرب يا ولدى فلم تميتها أنت ؟ لم تميتها بيدك ؟

شرد حربى أيضا ببصره بعيدا ولزم الصمت .

وكانت خالتى صفية أشد انزعاجا على صحة حربى منى ومن أبى ومن المقدس بشاى . قيل إنها تدعو له بالشفاء وبطول العمر وكانت تسأل عنه كل زواره وتوعز لهم أن ينصحوا أبى بأن يحضر أطباء من أسيوط بل ومن القاهرة إن أمكن - قيل أنها فى أحد المآتم انخرطت فى البكاء وراحت تلطم خديها وهى تقول .

يامصيبتى لو مات حربى . يا ويلى وياويلك ياحسان لو مات حربى . ماذا أقول للبك ؟ قولوا لى يا ناس ماذا أقول للبك ؟ تركناه يموت قبل أن نأخذ ثأرك ونطفىء نارك ؟

قيل إنها لم تهدأ ولم تكف عن حثو التراب على وجهها وشعرها الآ عند ما أقسمت لها واحدة من النساء إن زوجها زار حربى فى الدير منذ أيام ورأى وجهه يبك منه الدم وقد عاد كالحصان .

وليت تلك كانت هى الحقيقة ، فقد كان حربى يسوء يوما بعد يوم . لم يفلح فى العلاج أطباء أسيوط ولا أطباء العاصمة ولا أعشاب المقدس بشاى الذى أصبح يلازم حربى باستمرار ويكاد لا يفارق خصه .

غير اننا أنسينا ذلك أيضا عندما حلت بنا مصيبة جديد ة لم نعرفها من قبل . فقد ظهر عند مشارف القرية لأول مرة قطاع طرق . فى البدء رجع صبية من الرعاة الذين يسرحون بالضأن والماعز لالتقاط العشب ناحية الجبل وقد ضربوا وشجت رؤوسهم وسرقت أغنامهم .

قالوا وهم يبكون ان جماعة طلعت عليهم من وراء الجبل وضربت كلابهم بالرصاص أولا ، ثم طاردوا الصبية وهم يضربونهم بكعوب البنادق .

وبعد ذلك بدأ هؤلاء المجرمون يظهرون على الطريق المؤدية الى الاقصر وينهبون المارة بالليل . وقيل ان زعيمهم الذى يركب دائما حصانا أسود شخص لا يعرف الرحمة . يجرد من يلقاه فى الطريق من كل ما معه ، وينكل بالمفلسين الذين يوقعهم حظهم بين يديه فيجردهم من ثيابهم وينهال عليهم بالضرب وهو يسبهم ويعنفهم لأنهم يتصرفون كالادميين ويذهبون ويجيئون على الطرقات وكأنهم أولاد القنصل . كان يقسم إن رأى منهم واحدا بعد ذلك أن يقتله .

وهكذا انقطع عن طريق الاقصر بعد الغروب من يملك شيئا ومن لا يملك ، وبدأ المزارعون يخرجون جماعات لحراسة الزرع ويجتمعون فى حقل واحد وسط المزارع ليشرفوا على كل الأرض ، ولم يمنع هذا من سرقة بعض المحاصيل . وكان شيخ الخفر ومعه بقية الخفراء يسدون منافذ البلد طول الليل ، غير أن كل حملاتهم بل وحملات الشرطة التى جاءت للمساعدة ، لم تفلح فى القبض على اللصوص ولا على زعيمهم .

وخمن الجميع أنهم يعتصمون فى كهوف الجبل البعيدة المنال .

وفى تلك الأيام السوداء قلت زياراتنا لحربى . كنت أيامها فى الثانوية العامة منهمكا فى المذاكرة للحصول على المجموع ، وان لم يكن هذا هو السبب فى انقطاعى عنه . فالحاصل أن الرحلة فى الجبل حتى الدير ، التى كنت أقطعها أحيانا فى اليوم مرتين سيرا على القدمين أنا وغيرى ، أصبحت لا تتم الا عندما يجتمع عدد كبير لزيارة حربى . وكنا نذهب مسلحين بالبنادق .

ومن سوء الحظ أن زيارة المعلم فارس ورجاله انقطعت فى تلك الايام . بل وراجت إشاعه بأن هؤلاء اللصوص هم المطاريد أنفسهم وقد حليت قريتنا فى عيونهم بعد أن داسوها وعرفوها . وكان العقلاء يقولون وما الذى يغريهم بأن يتركوا البلاد الغنية فى شمال المحافظة وأن يحلوا ببلدتنا الفقيرة ؟

ولم يكن هذا هو التفسير الوحيد . فقد قيل أيضا ان السبب فى كل ما حل بقريتنا هو النجاسة التى يسببها السكارى . والحقيقة هى أن زبائن أكثر صاروا يترددون فى تلك الفترة على الغرفة الخلفية السرية من بقالة المعلم رزق لشرب البلح . ولما طالت الغمة فى القرية رأى العمدة من قبيل الاحتياط أن يزيل النجاسة فأرغم المعلم رزق على الامتناع عن

تقديم البلح . وقيل بل أرغمه على اراقة كل ما لديه من مخزون البلح . وهكذا اقتصرت سهرات أصحاب المزاج على تعاطى الجوزه المعمرة وهم يستمعون إلى الراديو ، وكانوا يطلقون فى تلك السهرات نكاتا تتردد فى اليوم التالى فى البلد ، مثل قولهم إن قطاع الطرق وجدوا عمدتنا حامد عسران عائدا من الاقصر ذات ليلة ولما فتشوه صعب عليهم فأعطوه بريزة ، أو قولهم إن العمدة قدم شكوى الى الأمم المتحدة فأعلنت أنها تستنكر قطاع الطرق وتؤكد أن ورقهم بحر ، وأشياء أخرى من هذا النوع .

وكنت فى بعض الأحيان أنقل هذه النكات الى أبى فيستمع الى صامتا دون أن يبتسم ولكن سكوته أغرانى على أن أستمر فى نقل الأشياء التى أسمعها الى أن هب ذات يوم صائحا فى وجهى :

أليست لديك دروس تذاكرها ؟ إن كنت لا تستطيع أن تفعل شيئا فى هذه المصيبة فذاكر دروسك واخرس .

ولم يكن أبى يسبنى قط منذ اعتبرنى رجلا ، ولكن هذا ما حدث يومها .

وفى تلك الأيام أيضا توفى المتنيح مترى العجوز رئيس الدير وحل محله رئيس لم يكن من رهبان الدير بل كان وافدا من الشمال . وظل المقدس بشاى يقوم بمشاويره الأسبوعية المعتادة الى الأقصر ، ولكن الرئيس الجديد أصر على أن يصحبه رهبان آخرون لحمل المشتريات وعلى أن يرجعوا من الأقصر قبل الظهر . وعندما كنا نزور حربى كان المقدس بشاى يستقبلنا بضحكاته المتعاقبة ويقول لنا ألاّ نهتم وألا نشغل بالنا بقطاع الطريق ، ثم يعقب ذلك بكلمات لا يفهمها.

الكثير منا . كان يقول هى ضربة حلت ببلدنا وستزول . ضرب الرب بلدنا من قبل سبع ضربات ثم كشف الغم ، وستزول هذه الضربة بمشيئة الرب وكنا نسأله بلهفة متى يا مقدس بشاى ؟

فيقول عن قريب بمشيئته .

وتمنى الجميع أيامها أن يكون المقدس بشاى متصلا بالفعل بالارواح وأن تكون الأرواح قد باحت له هذه المرة بالحقيقة .

أما الآن ، بعد كل تلك السنين فإنى أندهش كيف لم نفهم نحن منذ البدء ما استنتجه المقدس بشاى ببساطته وفطرته .

قيل إنه كان فى ذلك الصباح الشتوى يشتغل فى الأرض ، ينقى العشب من وسط الزرع ، وان حربى كان يجلس قريبا منه مقرفصا يلتمس دفء الشمس . وقيل ان بشاى ترك فجأة ما كان فيه واعتدل واقفا ثم اتجه الى جوار حربى وأخذ يحك جبينه بيده ثم قال له :

– ياحربى . فى البدء .. يعنى يا ولدى فى البدء تماما .. هل اختار الشرير المرأة أم اختارت المرأة الشرير ؟

كان حربى قد اعتاد على كلمات بشاى وأسئلته الغريبة فابتسم وهو يقول له : يامجدس أنا مرمى جنبك هنا وأنت تسألنى عن هذا الصنف ؟ .. ماذا أعرف عن النسوان وأنا هنا ؟ .. دعنى أخرج وأنا أرد عليك .

فضحك بشاى وهو يقول : بل سترد على يا حربى قبل أن يليل الليل .

قال حربى انه لم يفهم لماذا كان بشاى يلتفت كل لحظة الى الجبل .

ولكن هل كان سمع المقدس مرهفا الى هذا الحد ؟

يقول حربى إن بشاى تركه فجأة وجرى نحو الجبل وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما كأنه سيمنع الحصان الأسود والفارس الملثم الذى ظهر من خلف الصخرة . يقول إنه صرخ بصوت ردده الجبل :

– إبعد يا حنين .. إبعد يا يهوذا عليك لعنة الرب ..

يقول حربى ان تلك الصرخة هى التى أنقذت حياته ، فقد استقرت الرصاصة جنبه بالضبط وهو مقرفص على الأرض .. يقول ان البندقية اهتزت فى يد حنين فى تلك اللحظة وان الحصان شب على ساقيه الخلفيتين فاستطاع حربى أن يخرج المسدس من جيبه وأن يصيب حنين فى صدره فاستدار منكفئا على الحصان وجرى به فى الجبل . وكان بشاى لحظتها يبكى ويعدو نحو الجبل وهو يصرخ :

– ياحنين ارجع .. لم خرجت من حظيرة الرب ؟ ارجع ياحنين .. الشاه الضالة أيضا تدخل الملكوت ان رجعت فارجع ..

ولكن حنين كان قد ذهب بعيدا .

ففى المساء وجدوا فى قريتنا حصانا جائعا يسير خافض الرأس يلتقط ما يصلح له طعاما من الأرض ويرسم فى طريقه شريطا من الدم .. وعندما انزلوا حنين من فوقه كان قد فارق الروح .

وقيل ان خالتى صفية لما وصلتها الأنباء أخذت تنشج وهى تقول : اشهد يابك انى حاولت .. حتى مع المطاريد حاولت .

واشـهـد يابك أنى سـأحـاول الى أن ترتاح فى نومـك .. لن يغلبنا حربى .

وفى الصبـاح أرسل القـمص مكسيـمـوس رئيس الدير الراهب جرجس وكان يطلب مقابلة أبى . ذهبنا معا .

كانت أول مرة أرى فيها الراهب مكسيموس . وجدته قصيرا الى حـد ما ، هادىء الطبع عيـنـاه ضيقتان تلمعان بالذكاء . صافح أبى وصـافـحنى وسـألنى عن دراسـتى ثم التـفت الى أبى وقـال بابتسامة خفيفة : منذ وصلت الى هذا الدير ياحاج سمعت من الغناء ومن ضرب الرصاص اكثر مما سمعت من الصلوات . هذه سينما .

فقال أبى مهموما ان هذا لن يتكرر باذن الله .

قطب رئيس الدير قليلا وقال انه فهم ان المتنيح مترى عندما قبل أن يستضيف حربى كان عنده شرط معقول وهو ألا يدخل الدير سلاح لأن بيوت العبادة ، وحتى مزارعها ، ليست مكانا للعب بالنار . والآن ماذا سيقول للشرطة وللنيابة اذا جاءت الى الدير وسين وجيم ؟

رد أبى على رئيس الدير بأن يطمئن من هذه الناحية قال له إنه لن تكون هناك شرطة ولا نيابة .

وكان عمدتنا حامد عسران قد حسم الأمر على طريقته منذ الأمس ، فحين عرفت الحقائق وانتقلت الأخبار من الدير ومن بيت الخالة صفية اجتمع رجال قريتنا أمام بيت العمدة وكثر اللغط والاجتهاد . قال البعض ان حنين هو الذى عرض على صفية أن يقتل حربى ، وانه طلب منها آلاف الجنيهات عدا ونقدا فلم تساوم معه . وقال آخرون ، بل على

العكس ، ان الخالة صفية هى التى سلطت حنين ورجاله على قريتنا بعد أن طرده المعلم فارس . وبدأوا يلاحظون أن معظم من ضربوا أو سرقت محاصيلهم كانوا من أحباء حربى وزواره .

ولكن العمدة حامد خرج وصرخ فى الجميع قائلا : ولا كلمة ياغجر . شيخ الخفر كمن لهذا اللص وقتله. من قال كلمة غير ذلك قطعت لسانه . من ذكر سيرة حربى أو أى انسان آخر فحسابه عندى .

ومن الذى كان يريد شيئا آخر غير ما أراده العمدة ؟ : أن ترتاح القرية من تلك القصة كلها ؟ ..

اطمأن بال القمص مكسيموس قليلا عندما سمع بما حدث ، غير انه اشترط على أبى أن يسلم حربى مسدسه وألا يدخل الدير أى سلاح .

وعندما قام ليودعنا قال لأبى قرب باب الدير : على فكرة يا حاج . أنا أقول أن هذا الخص لا يليق بمقام ابن عمك . لو بنيت له غرفة ، أو بيتا صغيرا قرب الجبل فإنه يظل فى حمى الدير ، اليس كذلك ؟

فهم أبى ووعد رئيس الدير خيرا . وكان محزوناً . لم يبادلنى كلمة ونحن فى الطريق الى البيت .

غير انه لم يكن هناك داع لهذا كله .

.. فلم تكن قد مضت أيام ولم يكن أبى قد شرع فى البناء حين فوجئنا فى الصباح بصوت يصيح من بعيد ويقترب من بيتنا . ولما خرجنا انا وأبى مفزوعين رأينا المقدس بشاى يجرى دون الحزام الذى يربط وسطه فتهدل ثوبه عليه وتهدل جسمه كله واختلط لهاثه ببكائه وهو يقول :

أسرع يا حاج . اسرع ، الرب يسترد الوديعة ..

أجهش أبى أيضا بالبكاء وجرى فى اتجاه الدير كما هو ، بثياب البيت . وجريت وراءه . لم يفكر فى الانتظار لحظة ريثما ندبر ركوبة . لم يطرأ على بالنا لحظة أن ذلك يمكن أن ينقذ الوقت . وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها أبى يبكى ويهذى كان يقول : يارب .. رحمتك يارب . ارتحت يا صفية ؟ لن أرى حربى قبل أن يموت يا صفية .. يارب ! .. أريد أن أراه يارب ! ..

واستجاب الله لدعاء أبى . حين وصلنا كان حربى يرقد زائغ العينين ، بالكاد يتردد النفس فى صدره . ولكنه استطاع أ ن يميزنا ، ولمّا وضع أبى رأسه على حجره ناحية القبلة مد حربى يده ليمسك بيد أبى وقال بصوت شديد الخفوت : سامحنى . ياو لد .. والد .. ى ..

فقال أبى : سامحنا أنت يا حربى . يا أخى .. يا ولدى .. يا والدى .. يابوووى . . .

ولما لقنه الشهادتين وأسبل عينيه ، انحنى يحضنه ويبكى .

وعند باب الخص كان المقدس بشاى يقف جاحظ العينين . عاجزا فى لحظتها حتى عن البكاء ، ولما رآنى أبكى احتضننى بقوة ثم

أبعدنى عنه قليلا وظل يضع يدا على كتفى ويشير بيده الأخرى المرتعشة نحو الجسد المسجى بينما عيناه تزدادان اتساعا وقال لى فى دهشة بالغة : أنظر يا ولدى .. أنظر .. وهذا أيضا عاش للالم .. أترى ؟

وبعدها فقط وجد دموعه . وكان نشيجه يجاوب نحيبى ونشيج أبى الذى ظل منكفئا على الجسد الميت .

خـــاتمة

مـرت جنازة حـربى أمـام السـراى الذى لم يفتح مـرة واحـدة منذ هجـرته خـالتى صـفية . حـانت منى التـفاتة نحو بوابتـه التى عـلاها الصـدأ .. ورأيت النخـل الافـرنجى وقـد جف سـعفه وتهـدل فى لون بنى كـالح فـارتجفت وأنا أكرر الـهتـاف مع الموكب الحـزين « لا اله الا الله .. لا اله الا الله » .

ولم تبق خالتى صفية طويلا بعد رحيل حربى .

قيل ان النبأ نقل اليهـا وكانت تقف فى فناء الدار والى جوارها حسـان فـالتقطته من الأرض وهى تصـرخ صـرخة هـائلة ثم رمتـه بعزم قوتها نحو الحائط ولولا أن تلقفته واحدة من الخدم لتهشم رأسه .

قـيل إنهـا جلست بعـد ذلك على الأرض وقـالت فى همس : « مـات ميتـه ربنا ؟ .. مـات ميتـه ربنا ؟ .. أترى يابك ؟ لماذا فعلت بى هذا ؟ ثم صرخت مرة أخيرة : لماذا فعلتم بى هذا كلكم عليكم لعنة الله !

ثم قيل انـها قـامت بعد ذلك ودخلت الى غرفتـها ولم تنطق بشىء بعدها ولم تذق طعاما أو شرابا .

أبلغوا أبى بما حدث فـأتى لها بطبيب من الأقصر . كشف عليها وكـانت فى شبـه غيبـوبة فكتب لهـا حقنا للتـغذية . ولكنها ظلت مع ذلك تتدهور بسرعة .

قيل إنها كانت عندما تفيق قليلا تنزع الابر من يديها . ورفضت أن ينقلوها الى المستشفى فقال الطبيب إنه لا فائدة .

وكنت أزورها مع أبى فى تلك الأيام ولم تكن وقتها تتعرف على أحد . ولكنها ذات يوم أفاقت من غيبوبتها وتطلعت الى أبى الذى كان يقف الى جوار سريرها . ظلت تنظر اليه فترة بعينين متعبتين ، لم يغب جمالهما رغم كل ذبولها ، و قالت بصوت خافت ، صوت طفولى : نعم يا والدى . أعذرنى . لا أستطيع أن أقوم .. ولكن إن كان حربى يطلب يدى فقل للبك إنى موافقة .. أنت وكيلى يا ولدى .. وأنا موافقة على أى مهر يدفعه حربى .. لا تشغل بالك بالمهر ..

ثم أغلقت عينيها مرة أخرى ودخلت بعدها فى غيبوبتها الأخيرة .

❑❑❑

وكنت فى البلد أيضا ، أقضى الأجازة الصيفية بعد أن نجحت فى السنة الثانية بكلية الآثار عندما شاهدت نهاية تلك الأحداث .

كانت البلدة تتغير وكان الدير يتغير .. جاء رهبان جدد متعلمون وأصبحت هناك مكتبة كبيرة فى قاعة « كب النور » التى أعيد تنظيمها وطلاؤها ، وكنت أتردد بين الحين والآخر على تلك المكتبة للدراسة ، ولكنى بدأت لأول مرة أشعر بالخجل والاحراج لأننى لم أعد أعرف أحدا من الرهبان معرفة وثيقة غير الراهب جرجس ، ولم تكن المكتبة من اختصاصه . كان الرهبان الجدد مهذبين ومستعدين دائما لمساعدتى فى أبحاثى ولكن قليلا منهم من كان يتحدث لهجتنا الصعيدية أو يعرف تاريخ قريتنا .


حلمي التوني
يونيو ١٩٩١

ولم يعد المقدس بشاى يذهب الى الاقصر لشراء احتياجات الدير .. أصبح وقته كله فى المزرعة .

أحيانا يدرب الرهبان الجدد على الزراعة ، وفى معظم الوقت يجلس فى خصه يغنى أغنياته الحزينة لسيدة الالام . وبين وقت وآخر يخرج الى القرية مشعث اللحية متهدل الثوب ، وقد بدت عليه الشيخوخة بسرعة .كان يمر كالعادة وسط الحقول ، يعطى نصائحه كالعادة للمزارعين ، ولكنه يسأل دائما عن حربى . يسأل إن كان أحد قد رآه . يقول إن باله مشغول جدا لأن حربى خرج من خصه وربما يؤذيه أحد .

يقول إن حنين يتربص به ويريد أن يسلمه لأن حنين أخذ قطعا من الفضة . ينصح المزارعين إن رأوا حربى أن يعيدوه مرة أخرى الى الدير .

وذات صباح جاء الراهب جرجس يبحث عن أبى . قال ان رئيس الدير يطلبه فى خدمة . قال إنهم يحتاجون إلى عربة لنقل المقدس بشاى إلى المستشفى ولكن لا توجد أية سيارة أجرة ترضى بالذهاب إلى الدير فى الطريق الرملى ، فهل يمكن أن يساعده أبى ؟ .

سأل أبى فى فزع : ماذا جرى لبشاى ؟ لماذا تنقلونه إلى المستشفى ؟ ..

مال الراهب جرجس على أبى ممسكا بكتفه وهمس فى أذنه بشىء فتراجع أبى وقال مأخوذا : ولكن لماذا ؟ ما الذى جد ؟ المقدس طول عمره هكذا والبلد كلها تعرفه وتألفه . لم يؤذ فى حياته أحدا ، فلماذا ؟ عاد الراهب جرجس يميل على أبى ويهمس فى أذنه فأطرق أبى فى حزن ثم تنهد وقال للراهب جرجس أن يعود إلى الدير وإنه سيتصرف .

فهمت دون أن أسأل وتبعت أبى فى حزن لكى نشد الحانطور مرة أخيره .

كنا قد قررنا ألا نستعمله بعد أن كثرت السيارات على طريق المطار وأصبح استعمالها أسرع وأسهل .

وخيل الىّ أن الحصان البنى الضامر قد بدت فى عينيه الدهشة حين رآنا نشده بعد كل تلك الشهور الى العربة . وبدا متعثرا وهو يجر العربة الصدئة العجلات .

حاولت أن أعتلى المقعد الأمامى لأقود العربة ولكن أبى قال فى حسم وهو يمد يده فى وجهى : لا . إبق أنت .

قلت لأبى فى شىء من الاحتجاج : ولكنك تعرف أنى أحب المقدس بشاى ..

فقال وهو يضع يده على كتفى : ولهذا أريدك أن تبقى - دعنى أذهب بمفردى . وصدقنى ، ولا أنا كنت أتمنى أن أذهب فى هذا اليوم .

وأصر أبى - فبقيت ووقفت أتابعه وهو يشرق بالعربة نحو الدير فى بطء شديد .

ومع أن الراهب جرجس لم يكن قد كلم أحدا غير أبى ، فإن الأخبار فى قريتنا يستحيل إخفاؤها . بعد قليل كنت أقف مع جمع من أهل بلدتنا ، أصطفوا عند أول الطريق الرملى بالقرب من بيتنا ، ورحنا نرقب العربة الآتية تتأرجح من بعيد وأبى يحاول بطرقعات السوط وبشد اللجام وارخائه أن يحرك الحصان الذى كان قد نسى العدو ، ولكن دون جدوى . ظل بالكاد يسير ويتعثر وكأنه يوشك فى كل لحظة على السقوط .

وحل الصمت بصف الرجال الواقفين حين جاءتنا العربة . واستطعنا أن نرى المقدس بشاى بوضوح ولكنه لم يكن هو بشاى . كانوا لسبب ما قد خلعوا عنه ثوبه الأسود وألبسوه جلبابا عاديا وحلقوا له شعر رأسه ولحيته فبدا وجهه الأسمر ضئيلا للغاية وغريبا تحف به مكان اللحية هالتان شديدتا البياض .

وكان الراهب جرجس عن يمينه وراهب آخر لا أعرفه عن يساره يمسكان بذراعيه . وكان الصمت ثقيلا حين مرت العربة المتراخية إمامنا ، ولكن فجأة تحرك واحد من المزارعين الواقفين وكان يمسك عصا أو فأسا ، لا أذكر ، فرفعها ولوح بها وقال بصوت متهدج : « مع السلامة يا بشاى .. مع السلامة يا مجدس » .

ونظر بشاى نحونا بعينيه الواسعتين وتعرف عليّ واستطاع أن ينتزع ذراعه اليمنى من قبضة الراهب جرجس ولوح لى وهو يبتسم وقال : سلم لى على ....

ولم أستطع أن أميز اسم من يريد أن يسلم عليه ولكنى خمنته فجريت وراء العربة وانا أهتف أيضا :

مع السلامة يا مجدس ... مع السلامة ...

وكأن الحصان قد فزع من تلك الأصوات العالية فجرى للمرة الأولى حتى أرتج أبى فى مقعده ، ثم غابت العربة عن أعيننا وسط أزقة القرية .

□□□

كم مر من السنين ؟ .

ها أنا الأن أعيش فى القاهرة وتعيش أمى معى بعد رحيل أبى . كان قد وفى بنذر قطعه بعد أن تزوجت أخواتى وبعد أن تخرّجت فحج مرتين : مرة لنفسه ومرة لحربى . وتحقق له ما كان يتمناه فمات فى حجته الثانية ودفن فى المدينة الى جوار حبيبه عليه الصلاة والسلام .

أما أخواتى فلم تعد تعيش واحدة منهن فى البلدة ، تزوجن جميعا من أقرباء متخرجين فى الجامعة ، وتعيش ورد الشام مع زوجها فى السعودية وهاجرت سكينة إلى كندا بينما تقيم رقية فى الاسكندرية . ولم تتزوج عبلة من حسان الذى يصغرها ولكنها تعمل مع زوجها فى فرع مكتب التصدير والاستيراد الذى يملكه حسان فى ألمانيا .

تأتى هى وبقية أخواتها وأولادهم فى زيارات للقاهرة ولكن نادرا ما نجتمع كلنا معا ، وتبكى أمى أحيانا وحدتها وهى تسأل عما جرى .

أما أنا فمازلت أعمل فى الآثار ونادرا ما أذهب إلى البلد .

أعرف الأن أن هناك كهرباء فى كل منازل قريتنا أن أحدا لم يعد يشعل الكلوب . وأعرف أن الطريق إلى الدير قد أصبح مرصوفا وأن كثيرا من السياح الآن يذهبون لرؤية آثاره كما كان المقدس بشاى يتمنى .

ويبعث لى واحد من أبناء عمومتى دائما برسائل عاتبة. يسألنى لم أقفلنا البيت وتركناه مهجورا ؟ يقول إن الحيطان تهدمت والجدران تشققت ولم يعد الترميم يصلح بل لابد وأن نبنى البيت من جديد .

ويقول لى إن من ليس لديه بيت يحاول أن يبنى بيتا فكيف نترك نحن البيت يتقوض ؟ يلح أن أبنى البيت من جديد .

وحين أتلقى هذه الرسائل يرجع إلى ذاكرتى كل شيء مرة أخرى ، كما كان قبل ربع قرن .

وأسأل نفسى إن كان مازال هناك طفل يحمل الكعك إلى الدير فى علبة بيضاء من الكرتون ؟

وأسأل نفسى إن كانوا مازالوا يهدون إلى جيرانهم ذلك البلح المسكر الصغير النوى ؟ ..

أسأل نفسى ....

أسألها كثيرا ....

(تمت)

بهاء طاهر

جنيف – القاهرة : يناير ١٩٩٠

فريتاون « سيراليون » : أبريل ١٩٩٠

رقم الايداع
١٩٩١ / ٨٩٩٧
I . S . B . N
977 - 07 - 0128 - 9

مطابع دار الهلال



بهاء طاهر

- من مواليد عام ١٩٣٥ .
- نشر قصته القصيرة الاولى عام ١٩٦٤ .
- عمل مذيعا فى « البرنامج الثانى » . ومن أهم برامجه « بريد المستمعين » .
- حملت مجموعته الاولى بعنوان « الخطوبة » .
- سافر إلى جنيف ليعمل فى الامم المتحدة عام ١٩٨١ ولا يزال يعمل هناك حتى الآن
- يكتب القصة القصيرة والرواية من أهم أعماله « شرق النخيل » .. « بالأمس حلمت بك » و « قالت ضحى » المنشورة فى روايات الهلال و « أنا الملك جئت » .
- ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الاوروبية .
- كتب عنه الدكتور على الراعى ان روايته « قالت ضحى » اصدق محاولة لبعث التراث المصرى القديم ، اذ جعلت من اسطورة ايزيس واوزوريس الشهيرة جزءا من النسيج الحى للعمل الفنى عن طريق ما وصفه بالشعر والسحر فى اسلوب الرواية .

هذه الرواية

هذه رواية جديدة واصيلة لبهاء طاهر ..

وفى هذه الرواية سنجد نقلة اخرى فى مسيرته الروائية حيث يكتسب الواقع الخشن والعارى ذاته روح الاسطورة وحيث يجسد كاتب يعيش مغتربا عن مصر منذ سنوات طويلة ادق تفاصيل الواقع فى قرية صنعها بخياله فى اقصى صعيد مصر ذلك الصعيد الذى عشقه الكاتب وقدمه فى روايته « شرق النخيل » ..

وإذا كانت اساطير الاجداد فى روايته الاولى تلقى بظلها على الواقع فان الاسطورة الجديدة فى الدير تمد جذور الماضى الى المستقبل بكل الحب والامل لمصر الموحدة الخالدة .. مصر الرسالات المقدسة والسماحة والتى تعانق فيها العقيدة الحب .. لا العنف .

« خالتى صفية والدير »

رواية مزخومة بالمشاعر الانسانية العميقة الصادقة وبتناقضات البشر وبسمو العلاقات التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وايضا بالأماكن التى يعيشون فيها .. ويستمدون منها هويتهم وكينونتهم .

قالوا عن هذه الرواية

« رسالة حب عظيم للحياة والناس .. (رواية) بارعة الحسن فى بساطتها وعفويتها وسحرها الذى لا يقاوم ، سواء تحدث الكاتب عن الصغار أم الكبار عن النساء أم الرجال ، عن العقلاء أم المجانين ... »

د . على الراعى (المصور)

« العالم فى هذه الرواية مجموعة من العوالم التى تعيد صياغة بعضها البعض وتستخلص الأسئلة المثيرة من قلب الأجوبة ... والرواية بأكملها سؤال أبدعته كتابة حديثة فاتنة الجمال » .

د . غالى شكرى (الأهرام)

« شخوص بهاء طاهو كلها فىّ وفيك وفينا .. ورواية " خالتى صفية والدير " قطعة لؤلؤ جديدة فى مجوهرات الأدب العربى » .

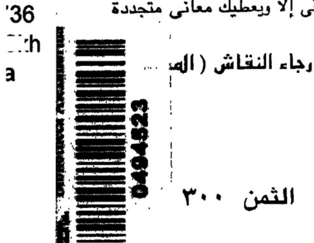
إبراهيم عيسى (روزاليوسف)

« كأننى اكتشفت كنزا .. (رواية) تمس شغاف القلب برقتها ونبل أبطالها وتعاطفها البالغ مع الإنسان بوصفه إنسانا .. تمسك بانتباه القارىء من أول لحظة وحتى نهايتها وتتركه وهو أكثر حكمة .. »

د . جلال أمين (الأهالى)

« هذه الرواية حديقة مليئة بالزهور الطبيعية الحية ... (قرأتها) مرتين وفى كل مرة كنت أجد فيها معانى أخرى جديدة .. وما من فن حقيقى إلا ويعطيك معانى متجددة كلما تأملت فيه » .

رجاء النقاش (المـ...



الثمن ٣٠٠